

٣

فارس الأندلس

روايات
مصرية
للجيب

السيف الذهبي



Looloo

www.dvd4arab.com

د. نبيل فاروق

١ - مهمة ..

ارتفع سهيل جواد عربى ، يشق سكون السهول
الحضراء ، الممتدة على مدى البصر ، على مشارف
(غرناطة) ، قبل لحظات من ظهور الجواد نفسه ، وهو ينطلق
مسابقاً للريح ، دون سرج أو لجام ، وعلى متنه شاب وسيم
الطلعة ، ممشوق القوام ، يتطاير شعره الأسود الفاحم فوق
رأسه ، وتتألق على شفثيه ابتسامة حماسية مرحة ، وهو يلكز
بطن جواده بكعبيه فى رفق ، ويجذب معرفته الناعمة ، هاتفاً :
— هيا يارفيق .. هيا ..

ومن خلف الجواد الأبيض الأصيل ، ظهر جواد آخر ، بنى
اللون ، يمتطيه رجل قوى ، أشيب الفودين ، له لحية أنيقة ،
وشارب ناعم ، اختلط بياضهما بسوادهما ، وحمل وجه الرجل
ابتسامة مماثلة لابتسامة الشاب ، وهو يهتف بجواده :
— هيا .. لا تسمح له بهزيمتنا .. هيا .

ولكن جواد الشاب كان قوياً بحق ، يجيد الاستجابة لأوامر
راكبه الصارمة ، وينطلق فوق السهول الحضراء بأقصى
ما يمكنه من سرعة ، حتى بلغ براكبه شجرة ضخمة الجذع ،
وارفة الأغصان ، غزيرة الأوراق ، فجذب راكبه معرفته

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضى والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

البيضاء الناعمة في حزم ، جعل الجواد يطلق صهيلًا طويلًا ،
ويدفع حافريه الخلفيين في الأرض ، ويتوقف عن العدو ،
ليضرب الأرض بحافريه الأماميين ، وكأنما يعلن أسفه عن انتهاء
السباق ، ثم توقف ساكنًا ، وقد انتفخ صدره في قوة ،
وغاصت بطنه في رشاقة ، واشرب عنقه في ترقب ، حتى لحق
به الجواد الآخر ، وهتف راكبه في صوت يخالطه اللهات :

— لا بأس .. لقد فزت هذه المرة يا (فارس) .

لُوح (فارس) بكفه ، وابتسم في سعادة ، وهو يقول :

— لقد اتبعت تعليماتك في دقة يا (مهاب) .

رَبَّت (مهاب) على ظهر تلميذه في فخر ، وهو يقول :

— يُسعدني أن هزمتني بتعليماتي يا ولدي .

قال (فارس) ، وهو يجذب معرفة جواده ، ليبدأ مع

مدرّبه رحلة العودة :

— إنني أدين بكل ما تعلمته ، من فنون الفروسية ، إليك

يا أستاذي .

جذب (مهاب) عنان جواده بدوره ، وتصارا متجاورين ،

و (مهاب) يقول :

— وهذا من دواعي فخري يا ولدي .

سأله (فارس) في اهتمام :

— ولكن هناك أمر يدهشني يا (مهاب) .

قال (مهاب) في بساطة :

— ماهو يا تلميذي النجيب ؟

سأله (فارس) :

— إنك تستخدم سرجًا ولجامًا لحصانك ، وكذلك يفعل

الشيخ ، و (فهد) ، فلماذا لقتني امتطاء جوادى دونهما ؟

لم يجب (مهاب) على الفور ..

لقد فجر السؤال في أعماقه ذكريات بعيدة ..

وانطلق خياله يسبح مع تلك الذكريات ..

وفي أعماقه ، رأى نفسه قائدًا لفرسان أمير عظيم ، يختال

بين رجاله في ثوب أبيض وخوذة فضية ، ويتدلى من نطاقه

الأخضر سيف قوى ، على متن جواد ناصع البياض ، دون

سرج أو لجام ..

فارس عظيم ، يواجه هجوم القشتاليين في بسالة وشجاعة ،

ويهوى بسيفه على أعناقهم وصدورهم ، مدافعًا عن حصنه ..

آخر حصون (قرطبة) ..

ولكن يا للخسارة ! ..

سقط آخر الحصون ، تحت ضربات القشتاليين ، وسقط

الفارس العظيم بطعنة غادرة ..

وما زال (مهاب) يذكر آخر كلمات الفارس ..
الصغير أيها الوزير .. الصغير يا (مهاب) .. الصغير
يا (فهد) ..
نطقها ولفظ أنفاسه الطاهرة الأخيرة بين أيديهم ..
ولم يكن هناك مجال للتراجع ..
كانت وصية أعظم الفرسان ..
وأعظم الرجال ..

وبلا تردد ، حمل الوزير و (فهد) و (مهاب) الأمير
الصغير ، الذي لم يتجاوز عامه الأول بعد ، وحملوا ثياب
الفارس ، وسيفه ، وامتطى الوزير جواده ..
وغادروا (قرطبة) ، والدموع تملأ عيونهم ، حزناً على
الفارس الصريع ، والحصن الضائع ..
وهناك .. في معسكرهم الصغير ، على مشارف
(غرناطة) ، أقسم الثلاثة على رعاية الصغير ، ومنحه كل
خبراتهم وفنونهم ..
وثما (فارس) في هذا المعسكر الصغير ..
وتعلم الحكمة والآداب من الوزير ، والفروسية والقتال
من (مهاب) ..
تعلم كيف يقاتل كما كان يقاتل والده ..

كيف يمتطى جواده مثله ، دون سرج أو لجام ..
كيف يصبح امتداداً لأعظم الفرسان ..
وهكذا أصبح الصغير شاباً ..
وصار فارساً ..
أعظم فرسان عصره ..
فارس (الأندلس) ..
لماذا يا (مهاب) ؟

انتزع السؤال (مهاب) من ذكرياته ، فانتفض انتفاضة
خافتة ، لم تفلتها عين الشاب ، فانعقد حاجباه ، وهو يسأل
(مهاب) :

— ماذا حدث ؟

هز (مهاب) رأسه ، وهو يقول في حزم :

— لا شيء .. لقد شردت فكري لحظات ..

أدرك (فارس) أن لهذا الشرود صلة مباشرة بسؤاله ، إلا
أنه كان يعلم أن (مهاب) لن يجيب سؤاله أبداً ، ولن يكشف
له سره قط ، فتجاهل السؤال بدوره ، وسأل (مهاب) في
هدوء ظاهري ، نجح في إخفاء ذلك البركان الثائر في أعماقه :

— ألم تصلك أخبار جديدة عن القشتاليين ؟

بدا من الواضح أن (مهاب) قد ارتاح لتجاوز سؤال

(فارس) ، فقد أجاب على الفور :

— يقولون في (غرناطة) إن القشتاليين يحاولون تنظيم صفوفهم ، استعدادًا للهجوم على (غرناطة) ، وإن ملكهم (فرناندو) يحاول استمالة بعض أمراء العرب ؛ ليقلل من المقاومة التي ستلاقيها جيوشه ، إذا ما حاولت غزو (غرناطة) .

قال (فارس) في حزم :

— لن ينجح في استمالة عربي واحد .

مطّ (مهاب) شفّته في أسف ، وقال :

— كنت أتمنى هذا يا ولدي ، ولكن يبدو أن المال يجد

طريقه دائمًا ، بين أصحاب النفوس الضعيفة .

قال (فارس) في صرامة :

— ليس بين العرب .

ابتسم (مهاب) ابتسامة مشفقة ، وقال :

— العرب بشر كغيرهم يا ولدي ، ومن الطبيعي أن تجد

ضعاف النفوس بين البشر .

لم يكن هذا القول يروق لـ (فارس) ، ولكنه اكتفى بمطّ

شفّته ، وزوى ما بين حاجبيه ، دون أن يعترض مرة أخرى ، ثم

ازداد انعقاد حاجبيه فجأة ، وهو يتطلّع إلى نقطة بعيدة ، لم

يلبث أن أشار إليها ، قائلاً :

— أهذا (فهد) ؟

تطلّع (مهاب) إلى حيث يشير (فارس) ، وبداله الجواد الأسود واضحًا ، تحت ضوء الشمس ، وهو ينطلق عبر السهول ، متجهًا إلى المعسكر الصغير ، إلا أن راحته لم يكن زنجيًا مثل (فهد) ، بل بدا أشبه بفارس من فرسان قصر الحمراء^(*) ، بزينة المزركش ، ودرعه الثقيل ، فقال (مهاب) :

— لا .. إنه ليس (فهد) .

جذب (فارس) معرفة جواده ، وهو يقول :

— فلنسرع إذن .

سأله (مهاب) ، وهو ينطلق بجواده خلفه :

— ما الذي يقلقك هكذا ؟ أليس من الطبيعي أن يزورنا

أشخاص بخلاف (فهد) ؟

(*) قصر الحمراء = آخر وأعظم حصون العرب في (الأندلس) ،

وهو أهم آثار (غرناطة) ، وما يزال قائمًا حتى الآن ، وعلى مقربة منه

كاتدرائية من الطراز القوطي ، ولقد سقط في أيدي القشتاليين عام

١٤٩٢ م ، بعد حصار طويل .

أجابه (فارس) ، وهو يحث جواده على الإسراع :

— بلى ، ولكن ليس هناك من أثق فيه من زائرنا سواه .
كان ينطلق بجواده في سرعة بالغة ، أجبرت (مهاب) على
أن ينطلق بها بدوره ، وهو يتساءل عن ذلك الزائر العجيب ،
الذي لم يعتد معسكرهم الصغير استقبال مثله قط ..
وفجأة جذب (فارس) ، معرفة جواده (رفيق) بطريقة
خاصة ، جعلت (رفيق) يتوقف على الفور ، دون أن يصدر
عنه أدنى صوت ، في حين أطلق جواد (مهاب) صهلاً خافقاً ،
عندما أجبره الأخير على التوقف المباغت ، قبل أن يسأل
(فارس) في حدة :

— لماذا توقفت هكذا ؟

أجابه (فارس) في حزم :

— يبدو أن الشيخ يتعرض للخطر .

التفت (مهاب) في حركة سريعة إلى المعسكر ، ورأى
الفارس ممسكاً بجواد الشيخ ، والشيخ يتقدم ليركب جواده ،
فقال في توتر :

— أنت على حق ، فالشيخ لا يغادر المعسكر أبداً .

استل (فارس) سيفه ، وهتف في صرامة :

— ولن يغادره بغير إرادته .

ولكن جواده في حزم ، مستطرذاً :

— هيا يا (رفيق) .

وكتير كاسر ، انطلق (رفيق) نحو المعسكر ، قبل حتى أن
يستعد (مهاب) للحاق به ، والتفت الشيخ في دهشة إلى
الجواد الأبيض ، وفوقه (فارس) ، يهتف :

— أخطأت هدفك يا رجل .

قبل أن يقفز عن جواده ، ويستل سيفه في وجه الفارس
الآخر ، الذي أسرع يستل سيفه بدوره ، وصلصل السيفان في
لقاء عنيف ، اختلط بصيحة الشيخ :

— توقف يا (فارس) .

توقف (فارس) عن القتال على الفور ، والتفت في حيرة
وتساؤل إلى الشيخ ، الذي أضاف في غضب :

— لا ترفع سيفك في وجه ضيف أبداً .

ارتفع حاجبا (فارس) في دهشة ، وهو يقول :

— ضيف !؟

ثم التفت في حيرة إلى الفارس ، الذي أعاد سيفه إلى غمده ،
دون أن ينبس ببنت شفة ، والشيخ يقول في غضب :

— ليس هذا ما علمتك إياه يا (فارس) .. الاندفاع

والتهور شيمة الحمقى فقط .

تضرج وجه (فارس) بحمرة الحجل ، في نفس اللحظة
التي وصل فيها (مهاب) ، وقفز عن جواده ، قائلاً بابتسامة
عريضة :

— وشيمة الشباب أيضاً يا سيدي .

قال الشيخ في صرامة :

— الفاشلون منهم فحسب .

لم يرق لـ (فارس) أن يتم توبيخه هكذا ، أمام شخص
غريب ، فأشاح بوجهه في ضيق ، في حين امتطى الشيخ
جواده ، وقال للفارس الآخر في وقار وشموخ :

— هيا بنا يا ولدي .

امتطى الفارس الآخر جواده بدوره ، واستعد للسير ،
ولكن الشيخ استوقفه ، والتفت إلى (فارس) ، قائلاً في
حزم :

— (فارس) .

التفت إليه (فارس) ، وحاول إخفاء ضيقه ، وهو يقول :

— نعم يا سيدي .

قال الشيخ في لهجة تحمل مزيجاً من الحزم والحنان :

— استعد يا (فارس) ، فأمالك مهمة جديدة .

شحذت العبارة حواس (فارس) وحماسه ، وأزالت في لحظة

واحدة ما كان يملأ نفسه من ضيق ، وهو يسأل الشيخ في لهفة :

— متى يا سيدي ؟

أجابه الشيخ في حسم :

— فور عودتي من رحلتي القصيرة هذه .

سأله (فارس) في لهفة أشد :

— وما طبيعة المهمة هذه المرة ؟

هز الشيخ رأسه نفيًا ، وقال :

— لست أدري .

تطلع إليه (فارس) و (مهاب) في دهشة ، فابتسم ابتسامة
خفيفة ، وتابع :

— لست أدري بعد .

ثم لكز جواده ، مستطرذا :

— استعد فحسب .

وانطلق مع الفارس مبتعدين ، تاركًا خلفه (فارس) ، وقد
غاص في بحر من الدهشة والحيرة والتساؤل ، دون أن يدري من أمره

سوى أنه ينتظر مهمة ..

مهمة غامضة ..



هبّ النسيم رقيقاً ، على وجه الأميرة (جميلة) ، ابنة أمير
(غرناطة) ، وداعب خصلات شعرها الأسود في نعومة ، قبل
أن تلتقطه أنفاسها العطرة ، وتملأ به صدرها ، ثم تطلقه في تنهيدة
حارة ، وعيناها تسبحان في الأفق ، فابتسمت وصيفتها
(فاطمة) ، وقالت :

— يلوح لي أن سيّدتي تستعيد ذكرى محبّة إلى نفسها .

تنهّدت (جميلة) مرة أخرى ، وقالت :

— صدقت يا (فاطمة) .. إنها ذكرى محبّة ، وقرية ، لم

تفارق أحلامي أبداً ، منذ ذلك اليوم ، الذي ..

تضرّج وجهها بفتة بحمرة الخجل ، وعجزت عن إتمام

عبارتها ، فأفتر ثغر (فاطمة) عن ابتسامة حنون ، وهي تقول

في خفوت :

— فهمت .

أشاحت (جميلة) بوجهها في خجل ، وهي تقول :

— فهمت ماذا ؟

أدنت (فاطمة) شفيتها من أذلي الأميرة ، وهمست :

— فهمت نوع الذكرى .

تنهّدت (جميلة) مرة أخرى ، وقالت : صدقت يا (فاطمة) ..

إنها ذكرى محبّة ، وقرية ، لم تفارق أحلامي أبداً ..

هتفت (جميلة) :

— حقاً؟! .. وهل كان (فارس) بصحبته ؟

لم تلبث أن شعرت بجيأ شديد ؛ للفتها الواضحة عليه ،
فغضت من بصرها ، وتضاعفت حمرة الخجل في وجنتها ، في
حين أجابت (فاطمة) :

— لا .. كان وحده .. يبدو أن مولاي الأمير يريد مقابلته
لشأن ما .

مضت لحظات ، خيم فيها الصمت التام على حجرة
الأميرة ، قبل أن تتمم (جميلة) :

— إنه ليس والده .. إنه مربيه ومعلمه فحسب .
ثم استدركت بسرعة ، وكأنها تخشى أن تسبح أفكار
(فاطمة) بعيداً :

— هكذا أخبرني والدي .

أومأت (فاطمة) برأسها متفهمة ، وقالت :

— ولكن فيم يريد مولاي ذلك الشيخ في رأيك ؟
هزّت (جميلة) رأسها في ببطء ، وأجابت ، وعيناها
تعودان للشرود :

— من يدري ؟ .. لقد أخبرني أبي يوماً أنه لا يلجأ إلى هذا الشيخ ،
إلا عندما تعقد الأمور ، وهذا يعني أن الأمور قد تعقدت الآن .

وازداد شرودها ، وهي تضيف :

— وأن (فارس) سيظهر مرة أخرى .

لم يكد الشيخ يدلف إلى الجناح الخاص للأمير (غرناطة) ،

تضاعف حياء (جميلة) ، وهي تغغمم :

— مخطئة أنت ولاشك .

اتسعت ابتسامة (فاطمة) ، وامتلات أكثر بالحنان ، وهي
تقول :

— إنني لم أقل شيئاً بعد .

لوّحت (جميلة) بيدها ، قائلة ، والحياء يأخذ منها
مأخذه :

— لا تقولي شيئاً إذن .

قالت (فاطمة) في حماس :

— كيف ؟ .. لقد رأيت والده منذ لحظات .

التفتت إليها (جميلة) في لفة ، تسألها :

— والد من ؟!

أجابتها (جميلة) ، وهي تغمز بعينها في خبث :

— والد ذلك الفارس الأبيض ، ذى النطاق الأخضر .

عاد وجه جميلة يتضرج بحمرة الخجل ، وهي تسألها :

— أين ؟ .. ومتى ؟

أشارت (فاطمة) إلى النافذة ، وقالت :

— رأيته من هذه النافذة ، منذ لحظات ، كان يسير بصحبة

أحد فرساننا ، نحو جناح والدك الخاص .

حتى التفت إليه الأمير ، وقال في لهفة من انتظر طويلًا :
— مرحبًا أيها الوزير .

الحنى الشيخ نصف انحناءة ، أمام الأمير ، وقال :
— لم أعد وزيرًا يا مولاي .. لقد صرت شيخًا ضعيفًا
فحسب .

اقرب منه الأمير ، وربت على كتفه ، وهو يقول :
— بل صرت أحكم الحكماء أيها الوزير .

دعاه للجلوس ، وصب له بنفسه قدحًا من الماء ، قال
الشيخ وهو يتناوله من يده :
— عفوا يا مولاي .. أما كان ينبغي أن تستدعى أحد
خدمك .

أجابه الأمير في تواضع جم :

— سيد القوم خادهم أيها الوزير .
ابتسم الوزير ، متممًا :

— أدام الله نعمته عليك يا مولاي .

تنهد الأمير ، وقال :

— دعك من هذا أيها الوزير ، واستمع إليّ جيدًا .

اعتدل الشيخ بقدر استطاعته ، وقال :

— كلّي آذان صاغية يا مولاي .

بدا الأمير مهمومًا قلقًا ، وهو يقول :

— لا شك عندي في أن أخبار استعدادات القشتاليين قد بلغتك .

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا ، وقال .

— سمعت أنهم يحشدون جيوشهم على حدودنا ، وأنا
نحشد جيوشنا في مواجهتهم أيضًا .
قال الأمير :

— هذا صحيح ... من الواضح أنهم يستعدون لحرب
جديدة ، في محاولة لانتزاع (غرناطة) منا .. إننا لا نخشاهم في
الواقع ، فجيوشنا مستعد للقائهم ، ولكن ما يقلقني هو أن
(فرناندو) ، ملك القشتاليين ، لا يكفى بقتال الجيوش ،
وإنما يحاول إغواء بعض أمرائنا .

سأله الشيخ في اهتمام :

— وكيف له أن يفعل ؟

لوح الأمير بأصابعه ، قائلاً :

— بالمال أيها الوزير .. نفحة الشيطان ، التي تسمى دائمًا
أبصار البشر ، وتميت قلوبهم وضمائرهم .

قال الشيخ :

— ولكن أمراءنا لا يحتاجون إلى المال يا مولاي !

مطأ الأمير شفتيه ، وتنهد في أسف ، وهو يقول :

— هذا ما يظنه الناس أيها الوزير ، ولكن الواقع أن بعض
أمراء (الأندلس) هزمتهم شهوة المال ، فراحوا يجمعونه بكل
وينفقونه في سفه منقطع النظر .. أتصدّق أن أحدهم قد صنع

لجاريته الأثرية بركة من ماء الورد ، تحيط بها شواطئ من
التبر (*) رفع الشيخ حاجيه في دهشة ، هاتفاً :
— إلى هذا الحد ؟!

أوما الأمير برأسه إيجاباً في أسف ، فتابع الشيخ :
— ولكن أى مال يمكن أن يغوى أميراً بهذا الثراء ؟
قال الأمير :

— ربما ليس المال في حد ذاته ، ولكن روعة الصورة التي يُقدّم بها .
بدا التساؤل على وجه الشيخ ، فتابع الأمير :
— كانت فكرة شيطانية أشار بها على (فرناندو) مستشاره
الخاص (هاكل) .. وهو يهودى داهية كما تعلم .. لقد دفع
أمهر صائغى الملك إلى صنع سيف من الذهب الخالص ، له
مقبض من اللؤلؤ والماس ، وجراب مزدان بكل أنواع الأحجار
الكريمة ، بحيث صار ذلك السيف الذهبى كنزاً يسيل له لعاب
أثرى الأثرياء ، وتزوج له عيون كل شره محب للمال .. ولقد
أرسل (فرناندو) مستشاره (هاكل) هذا ، حاملاً ذلك
السيف الذهب ، إلى الأمير (عبيدة) ، أقوى أمراء
(الأندلس الصغرى) ، تحت حراسة مشددة .

(*) حقيقة تاريخية ، والتبر هو (تراب الذهب) ، وقد صنع ذلك
الأمير لجاريته هذه البركة . لأنها أرادت أن تلهو بالطمى ، كأطفال
الأزقة .

سأله الشيخ في اهتمام :

— وهل تخشى أن يُذهب السيف عقل الأمير (عبيدة)

يا مولاي ؟

أوما الأمير برأسه إيجاباً ، وقال :

— لست مستعداً للمخاطرة باحتمال حدوث هذا ،

ولا يمكننى في الوقت نفسه أن أمنع وصول (هاكل) إلى

(عبيدة) بالقوة ، فلقد منحه (عبيدة) الأمان ، ووافق على

لقائه ، وتعرضى لشخص تحت حماية الأمير (عبيدة) ، مهما

كان هذا الشخص ، سيثير حتماً ثائرة الأمير ، وقد يدفعنا إلى

حرب أهلية ، يعلم الله (سبحانه وتعالى) وحده مداها ، ونحن

في غنى عن أية قلاقل داخلية ، والعدو يتربص بنا على الحدود .

هز الشيخ رأسه متفهماً ، وقال :

— فهمت يا مولاي .. إنك تريد أن تمنع (هاكل) هذا

من بلوغ قصر الأمير (عبيدة) ، والاجتماع به ، دون أن يتخذ

هذا المنع صفة التدخل ، أو يحمل ما يشير إليك .

قال الأمير في ارتياح :

— هذا صحيح أيها الوزير .

ثم استدرك في سرعة :

— وهذا لا يعنى أننى أخشى الأمير (عبيدة) .

قال الشيخ في سرعة :

— إننى أفهم يا مولاي .. أفهم جيداً .

تعلقت عينا (فرناندو) ، ملك القشتاليين ، بحمامة
وحيدة ، تضرب بجناحها الهواء في قوة ، وهي تسبح فيه في
انسيابية جميلة ، متجهه نحو القصر الملكي في (قرطبة) ، وهز
الكأس الذهبية في يسراه ، وهو يتمم في خفوت شديد :

— يبدو أنها هي .

التفتت إليه الملكة (إيزابيلا) ، وسألته في حدة :

— ماذا تقول ؟

أجابها في خشونة ، دون أن يلتفت إليها :

— إنني أتحدث مع نفسي .

ثم التفتت إليها في حركة عنيفة ، مستطرذا :

— وأظن هذا من حق كل ملك .. أليس كذلك ؟

احتقن وجهها في غضب ، دون أن تبس ببث شفة ، في
حين أشاح عنها هو بوجهه ، وظل يتابع الحمامة المنفردة ،
وارتسمت على شفثيه ابتسامة واسعة ، عندما رآها تدلف إلى
برج القصر ، وتملكته نشوة مباغثة ، جعلته يلتفت إلى
(إيزابيلا) ، ويرفع كأسه عاليًا ، هاتفاً :

— في ضحة ملكة (الأندلس) المقبلة .

بدا الارتياح الشديد على وجه الأمير ، وقال :
— هذا السيف الذهبي فتنة أيها الشيخ ، وكل ما أسعى إليه
هو قتل الفتنة في مهدها .

ثم التفت إليه ، مستطرذا في حسم :

— ودون إشعال نيران فتنة أخرى .

نهض الشيخ في بطاء ، وهو يقول :

— فهمت تمامًا يا مولاي .. إنك تريد مهمة محدودة ،

ينبغي أن تقوم بها فرقة صغيرة للغاية .

غمغم الأمير :

— أو أقل من هذا .

ابتسم الشيخ ، وهو يقول في بطاء :

— بالتأكيد يا مولاي .. إنها فرقة من فارس واحد ، أو

فارسين .

قال الأمير في حسم :

— المهم أن يكون أحدهما هو (فارس) ؛ فأنا واثق أنه

سيفعل هذا من أجل .

قال الشيخ في صوت قوى التبرات :

— معذرة يا مولاي ، ولكنه سيفعل هذا (بإذن الله) من

أجل الحق ، ومن أجل هذا البلد .

وأضاف في صرامة :

— من أجل (الأندلس) .

وكانت البداية ..

وجرع الكأس دفعة واحدة ، وهي تحذق فيه بدهشة ، قبل
أن تهتف في غضب :

— لا ريب أنك مصاب بالجنون .

فهقه ضاحكًا ، على عكس ما كانت تتوقع ، وألقى بكأسه
على المائدة ، وهو يقول :

— ومن ذا الذي يشاهد جمالك الفتان ، دون أن يصاب
بالجنون يا عزيزتي (إيزابيلا) ؟

حدقت في وجهه بدهشة بالغة ، ثم غمغمت ، وقد تسللت
إلى شفيتها ابتسامة :

— يبدو أنك قد شربت وعاء الخمر كله .

مال نحوها ، هاتفاً :

— بل سكرت من خمر عينيك يا مليكتي .

وعلى الرغم من أسلوبه المتبدل ، فقد أسعدتها عبارته ،
فهتفت :

— عجبًا !! .. أهذا هو (فرناندو) الذي أعرفه ؟

فهقه ضاحكًا ، وهو يقول :

— بل هذا هو (فرناندو) المنتصر ، ملك (الأندلس) .

المرتقب ، وصاحب أعظم نصر في تاريخ المنطقة كلها .

ثم التفت إليها في حركة سريعة ، وأضاف :

— ولكن هل راقت لك عبارتي ؟

تمتت :

— بالتأكيد .

امتلاً وجهه بابتسامة كبيرة ، وبرقت عيناه بنظرة ساخرة
ظافرة ، أطارت نشوتها بعبارته ، وجعلتها تعود لتقطب جبينها
في غضب ، في نفس اللحظة التي تعالت فيها دقات متعجلة على
باب جناحهما الخاص ، فالتفت (فرناندو) إلى الباب ،
وهتف في لهفة :

— ادخل .

فتح حارسه الخاص الباب ، واندفع عبره جندي مستين
البيان ، دق قدمه في الأرض في قوة ، وهو يضع رجمه بمحاذاة
جسده ، هاتفاً :

— التحية لـ (فرناندو) العظيم .

ومد يده برق ورق إلى (فرناندو) ، الذي اختطف الرق
في لهفة ، وقال للجندي في خشونة :

— هيا .. انصرف .

انصرف الجندي في سرعة ، وأسرع (فرناندو) بالرق إلى
نافذة جناحه ، وراح يطالعها في لهفة ، ثم لم تلبث عيناه أن برقنا
في ظفر وارتياح ، فاقتربت منه (إيزابيلا) ، تسأله :

تابعت في غضب ، وكأنها لم تسمع عبارته :
— يقولون إنك قد كلّفت صائغك الخاص صنع تحفة من
الذهب ، وأرسلت بها (هاكل) ، إلى أحد أمراء العرب ،
لإغرائه بالانضمام إليك ، في حربك المرتقبة .
عقد حاجيه في غضب ، وهو يقول :
— يبدو أن لسان هذا الصائغ يحتاج إلى بعض الاختصار .
قالت في حدة :

— الصائغ لم يفه بحرف واحد ، ولكن القصر مجتمع
محدود ، تنتقل فيه الأخبار بأسرع مما تتصور .
ران عليهما الصمت لحظة ، خيل لـ (إيزابيلا) خلالها أن
(فرناندو) سيفصح لها عما لديه ، إلا أنها فوجئت به بصرخ
فجأة :
— أيها الحارس .

لم يكذب انتهى من عبارته ، حتى فتح حارسه الخاص الباب في
عنف ، ووقف ثابتاً متحفزاً ، ينتظر أوامر سيده ، الذي قال في
صرامة :

— اصحب جلاله الملكة إلى حجرتها .
اتسعت عينا (إيزابيلا) ، في دهشة واستكار ، واحتقن
وجهها في غضب شديد ، إلا أنها لم تشأ إظهار حرج موقفها

— ما الذي تحمله هذه الرسالة ؟
أبعد (فرناندو) الرسالة عن عينيها ، ودسها في ثيابا ردلته
الملكى ، وهو يقول :
— إنها رسالة من (هاكل) .
قالت في غضب :
— ولماذا تخفيها عني ؟
أجابها في خشونة :
— إنه أمر يخصني وهو ، ولا شأن لك به .
صاحت في حدة :

— لا شأن لي به ؟! .. ماذا تظن نفسك
يا (فرناندو) ؟ .. إننا نخوض هذه الحرب معاً ، ولست
تخوضها وحدك ، ومن حقى الاطلاع على أى أمر يخص حربنا .
أشاح بوجهه ، قائلاً في غلظة :
— ومن قال إن لرسالة (هاكل) أى شأن بالحرب ؟
تراجعت هاتفة :

— عجباً !! .. أتظن نفسك ذكياً يا (فرناندو) ؟ .. ألم
يلغك ما يتهامون به ، في كل ركن من أركان قصرك ؟
هز كفيه ، قائلاً في برود :
— لا يعينى ما يتهامون به .

تمم (فارس) بهذه العبارة ، وهو يختفى مع (مهاب)
خلف بعض الأشجار الصغيرة ، يراقبان قافلة (هاكل) ، التي
اقتربت كثيرًا من قصر الأمير (عبدة) ، وقال (مهاب) :
وهو يفحص القافلة بنظرة خبير :

— إنهم ليسوا مجرد دسنة من الحراس فحسب .. لاحظ أن
كلًا منهم يرتدى درعه كاملًا ، ويحمل مجنًا من الفولاذ
الدمشقي ، ازدان بشعار ملكي خاص .

سأله (فارس) في اهتمام :

— وما الذي يعنيه هذا ؟

أجابه (مهاب) ، وهو لا يزال يفحص الجنود بصره :

— يعنى أنهم من فرسان الحرس الملكي الخاص ، أقوى
فرسان (قرطبة) ، وأشدهم قوة وبأسًا ، وهم من أشجع
فرسان (قشتالة) و (ليون) .

واعتدل على جواده ، مستطرًا :

— ويعنى أيضًا أن هزيمتهم لن تكون أبدًا باليسيرة .

عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يقول في حزم :

— هذا لو حاولنا هزيمتهم بالقوة .

ابتسم (مهاب) ، وقال :

— من الواضح أن تعاليم الشيخ قد أثمرت .

أمام الحارس ، فقالت في اعتداد :

— شكرًا لمبادرتك الرقيقة يا عزيزي (فرناندو) ،
ولكننى أستطيع بلوغ حجرتي وحدى ، على الرغم من الدوار
الذى أشعر به .

ورفعت رأسها في كبرياء ، وهى تندفع مغادرة جناحه ،
فقال الحارس :

— هل أتبعها يا مولاي ؟

لوح (فرناندو) بكفه ، علامة على النفى ، فانصرف
الحارس ، وأغلق الباب خلفه وهنا صب (فرناندو) لنفسه
كأسًا أخرى وهو يقول :

— فلتذهب تلك المتطرسة إلى الجحيم .

وارتشف رشفة من الكأس ، وهو يتطلع إلى الأفق في
شروء ، مستطرًا :

— المهم أن ينجح (هاكل) في مهمته ، وليفتح لنا أبواب
(غرناطة) على مصراعها ..

وجرع باقى الكأس دفعة واحدة كعادته ..

« إنهم دسنة من القشتاليين .. »

هتف به (فارس) مستكراً :

— وهل كان لديك شك في هذا ؟

أجابه (مهاب) مبتسماً :

— مطلقاً .

ثم مال نحوه ، يسأله :

— وما الذى تقترحه بالضبط ؟

تنحج (فارس) في حرج ، وقال :

— أنت مدربى .

لوح (مهاب) بيده ، قائلاً :

— دعك من هذا .. إننى أحب سماع خطتك .

صمت (فارس) لحظة مفكراً ، ثم قال :

— فليكن .. استمع إلتى ..

وروى خطته ..

أوقف (هاكل) جواده ، الذى يتوسط قافلة القشتاليين ،

وأخرج منديلاً من الحرير الأحمر ، جفّف به عرقه ، ثم التفت

إلى قائد كتيبة الفرسان ، التى تصاحبه ، وسأله :

— كم تبقى أمامنا ، لنبلغ قصر ذلك العربى

يا (فرانثيسكو) ؟

٣٢

أجابه قائد الفرسان :

— مسيرة ساعة فحسب يا صاحب الفخامة .

التفت (هاكل) إلى جواد قوى يسير خلفه ، وفوقه

صندوق مغطى بغطاء من الحرير الأزرق ، وقال :

— إننى أتعجل القصر ؛ فحملنا ثمين .

ضرب قائد الفرسان بقبضته على درع صدره ، وهو يقول

في حزم :

— لا تخش شيئاً يا صاحب الفخامة .. إننا سنحمى حملنا

بسيوفنا .

ابتسم (هاكل) ، وقال :

— لست أظننا سنحتاج إلى هذا كثيراً

يا (فرانثيسكو) ، فهؤلاء العرب يتمكّنون عادة بتقاليد

بالية سخيفة ، ومادما قد طلبنا حماية الأمير (عبيدة) هذا ،

فهو سيبغ علينا حمايته ، دون حتى أن يدري هدفنا من

زيارته .

وقهقه ضاحكاً ، وهو يستطرد :

— الشهامة والمروءة والكرم .. يالها من صفات غيبة ،

يتشبّث بها هؤلاء العرب .

ارتفع فجأة صوت غاضب ، يقول :

٣٣

— نسيت الكرامة والنخوة أيها الحقير .

التفت الجميع في سرعة إلى مصدر الصوت ، وكاد بعض الحراس يستل سيفه ، لولا أن وجدوا أمامهم رجلاً واحداً ، أشيب الفودين ، يرتدى زياً أندلسياً عادياً ، ويتمنطق بنطاق من الجلد ، يتدلى منه سيف فولاذي ضخيم ..

وكان هذا الرجل هو (مهاب) ..

وكانت ملامحه تحمل صرامة وحزمًا لا مثيل لهما ..

وفي خشونة وغلظة ، قال (فرانثيسكو) لـ (مهاب) :

— ابتعد يا رجل .. إننا تحت حماية الأمير (عبيدة) .

قال (مهاب) في صرامة :

— لم أسمع به قط .

استل (فرانثيسكو) سيفه ، واتجه بجواده نحو

(مهاب) ، وهو يقول في غضب :

— فليكن .. هل سمعت بهذا ؟

ظل (مهاب) ساكناً ، صامئاً فوق جواده ، يرمق

(فرانثيسكو) بنظرة باردة صارمة متحدية ، حتى اقترب منه

هذا الأخير ، وهو يقول في سخرية :

— يبدو أنك تستحق درساً قاسياً ، و ...

وفجأة ، ودون سابق إنذار ، استل (مهاب) سيفه

بدوره ، وهوى به ..

وكفارس من فرسان الحرس الملكي ، انتبه (فرانثيسكو)

إلى مبادرة (مهاب) في الوقت المناسب ، فرفع مجنّته

(ترسه) ، ليتلقى عليه ضربة سيف (مهاب) ..

ولكن سيف (مهاب) خدع (فرانثيسكو) ..

بل خدع كل العيون ، التي شاهدته يخرج من غمده ..

لقد مال السيف مع جسد (مهاب) ، وتجاوز درع

(فرانثيسكو) ومجنّته ، وانخفض بحركة مباغته سريعة ،

ليضرب حزام سرج جواد (فرانثيسكو) ، ويقطعه في مهارة

منقطعة النظير ، دون أن يمس بطن الجواد بخدش واحد ..

ومع انقطاع ذلك الحزام ، الذي يربط السرج ببطن

الجواد ، ويثبتته فوقه ، انزلق السرج ، وفقد (فرانثيسكو)

توازنه بغتة ، وانزلق مع السرج ليرتطم بالأرض ، ويصرخ في

غضب وألم وحنق :

— اللعنة !

ومع سقوطه ، أطلق (مهاب) ضحكة ساخرة عالية ،

أشعلت غضب الفرسان الباقين ، وجذب عنان جواده ،

وانطلق به مبتعداً ..

وفي ثورة غضبه ، صرخ (فرانثيسكو) :

— الحقوا به .. اقتلوا ذلك الوغد .
 ودون ذرة من التفكير ، واستجابة لهتاف قائدهم ، اندفع
 الفرسان خلف (مهاب) ، فهبَّ (هاكل) صائحًا :
 — مهلاً .. لا تنصرفوا جميعًا .. مهلاً .
 صاح به (فرانثيسكو) في غضب :
 — ويحك يا رجل .. لقد أهانهم ذلك العربي الحقير
 كثيرًا ، بإهاتته لقائدهم .
 هتف به (هاكل) في غضب :
 — أوخذعهم أيها الغبي ، وجذبهم بعيدًا عن حملنا الثمين ؛
 ليصبح لغيره الاستيلاء عليه .
 اتسعت عينا (فرانثيسكو) في ذعر ، وقد أدرك الفخ ، الذي
 سقط فيه كفر ساذج ، فاندفع محاولًا اللحاق بجنوده ، صائحًا :
 — عودوا أيها الأغبياء .. عودوا .
 لم يبلغ نداؤه سوى آذان آخر ثلاثة من رجاله ، فأداروا
 أعنة جيادهم ، استعدادًا للعودة إليه ، في نفس اللحظة ، التي
 خرج فيها من بين الأغصان فوقه صوت حازم حاسم ، يقول :
 — سبق السيف العزل أيها الغبي .
 رفع (فرانثيسكو) عينيه في سرعة إلى أعلى ، وأطلق
 شهقة بدهشة ، عندما وقع بصره على الفارس ..
 فارس (الأندلس) .



انزلق السرج ، وفقد (فرانثيسكو) توازنه
 بغتة ، وانزلق مع السرج ليرتطم بالأرض ..

٤ - القوة ..

هبت (غالا) الجميلة واقفة ، في حجرتها الصغيرة ،
وهتفت في صوت يجمع ما بين الدهشة والتساؤل والمفاجأة :
- مولاتي (إيزابيلا) .. مرحبًا بك في حجرة وصيفتك
المواضعة ، التي ..

أشارت إليها (إيزابيلا) ، وهي تقاطعها في توتر :

- لا داعي يا (غالا) .. لا داعي ..

ظلت (غالا) واقفة في حيرة ، تتساءل في أعماقها عن سر
زيارة الملكة لحجرتها ، وهي التي لم تفعل هذا أبدًا ، في حين
اتخذت الملكة مجلسها ، على طرف سرير (غالا) ، وأشارت
إلى تلك الأخيرة ، قائلة :

- اجلسي يا (غالا) .. أريد التحدث معك قليلًا .

جلست (غالا) على ركبتيها ، عند قدمي الملكة ، التي
تطلعت إليها في شيء من الغيرة والحسد ، لم تنجح هذه المرة في
إخفائها كعادتها ..

كانت (إيزابيلا) جميلة بالتأكيد ، ولكن جمالها هذا كان
يبدو أشبه بصورة باهته شاحبة ، أمام فتنة (غالا) الطاغية ،
وجمالها الساحر ، الذي أهب قلوب الجميع ، وعلى رأسهم

(فرناندو) نفسه ..

ولكن الهية الملكية كانت تقتضى من (إيزابيلا) دائمًا
تجاهل هذا ، والتظاهر بعدم معرفته ..
بل استغلاله في بعض الأحيان ..

ولقد لاذت (إيزابيلا) بالصمت بعض الوقت ، حتى بلغ
قلق (غالا) مبلغه ، ثم قالت في هدوء :

- هل تلتقين بـ (فرناندو) هذه الأيام ؟

تضرج وجه (غالا) بحمرة الخجل ، وهي تقول في
ارتباك :

- ومن ذا الذي يجروني على مخالفة أوامر الملك يا مولاتي ؟
أومأت (إيزابيلا) برأسها في مرارة ، وغمغمت :

- نعم .. من ذا الذي يجروني ؟

ثم رفعت أنفها في شموخ ، وتلاشت المرارة من صوتها ،
وهي تقول :

- حسنًا يا (غالا) .. سيفيدني اقترابك منه ، في هذه
الأيام ..

أدركت (غالا) بذكائها ما ترمي إليه الملكة ، فمالت
نحوها في بطاء ، وسألتها في خبث :

- ما الذي تريد مولاتي معرفته ؟

سألتها الملكة في اهتمام بالغ :

— أريد منك أن تعزفي منه سر ذلك الشيء ، الذي طلب
من صائغه صنعه ، والسبب الذي أرسل من أجله (هاكل) إلى
أرض العرب .

ارتسمت على شفتي (غالا) ابتسامة واسعة ، وهي
تراجع قائلة في دهاء :

— وهل تحتاج أجوبة مثل هذه الأسئلة ، إلى الاقتراب من
مولاي الملك يا مولاتي ؟

اعتدلت (إيزايلا) في اهتمام ، وهي تقول :

— ماذا تعنين ؟

لوححت (غالا) بكفها ، قائلة :

— جدران هذا القصر لا تخفي أية أسرار يا مولاتي .

هتفت (إيزايلا) :

— إذن فأنت تعلمين كل شيء .

انحنت أمامها (غالا) ، وهي تقول في مكر :

— وتحت أمر مولاتي الملكة .

أمسكت (إيزايلا) كفي وصيفتها الأولى ، وهي تقول في

لطفة وفضول :

— هيا يا (غالا) .. هيا .. أبلغيني مالديك .

ازدادت انحناءة (غالا) ، وهي تقول :

— سمعًا وطاعة يا مولاتي .

وألقت على مسامع الملكة ما لديها ..

انطلق (مهاب) على جواده في مهارة ، وخلفه ثمانية من
أقوى فرسان الحرس الملكي ، يسعون للإمساك به ، ومعاقبته
على إهانة قائدهم ، ولكن هذا لم يفت في عضد (مهاب) ،
الذي انطلق ملوحًا بسيفه ، وهو يهتف :

— هيا أيها الأوغاد .. زيدوا من سرعيتكم .. هيا .

انحنى ، وهو يعبر أسفل غصن قوي ، ثم مال جانبًا ، ورفع
سيفه ، ليهوى به على جبل في جدائل الأغصان ، يجذب هذا
الغصن القوي ، وهو يقول :

— هيا .. انطلق .

لم يكد جبل جدائل الأغصان يقطع ، حتى أفلت الغصن
القوي من عقاله ، وانطلق كسوط ضخم في وجوه الفرسان
الثمانية ، وارتطم بوجوههم كجلمود صخر ، أطلقه منجنيق
قوي (*) ، فانزع ثلاثة منهم من فوق جيادهم ، وألقاهم أرضًا

(*) المنجنيق : آلة حربية قديمة ، تعتمد على جذب مقلاع ضخم ،
بوساطة جبل سميك ، ووضع صخرة ضخمة ، أو ككل مشعلة ، في
تجويف المقلاع ، وإطلاق الجبل ، بحيث تتحوّل الصخرة ، أو الكتلة
المشعلة إلى ما يشبه قبلة جوية عنيفة .

في عنف ، وأصاب وجه الرابع إصابة عنيفة ، فصرخ في غضب :

— لن تفلت أيها العربي .

لم تكن في جعبة (مهاب) ، أية وسائل خداعية أخرى ، فواصل انطلاقه بجواده ، وهو يقول لنفسه :

— أتعتشم أن تكون قد انتهت من مهمتك الآن يا (فارس) .

كان يعتمد في فراره على سرعة جواده ومهارته ، فراح يلكزة بكعبيه ، وهو يهتف به :

— هيا يا صديقي .. انطلق بأقصى سرعة .. إنك أملى الوحيد .

ولكن فجأة بدت أمامه تلك الفجوة العميقة ..

كانت فجوة واسعة ، يعجز جواده عن عبورها ، وعميقة ، سيلقى حتفه حتمًا ، لو سقط داخلها ..

ولم يكن هناك مفر من التوقف ..

ومن المواجهة ..

وبكل ما يملك من قوة ، جذب (مهاب) عنان جواده ، الذي توقف على قيد ذراع واحد من الهوة ، ثم استدار استجابة لفارسه ، وتوقف يواجه الفرسان الخمسة ، الذين استلوا

سيوفهم ، وأطلقوا صيحات الظفر ، وهم ينقضون على (مهاب) ..

ولكن (مهاب) انتظر حتى اللحظة الأخيرة ، ثم جذب عنان جواده جانبًا ، هو ينحني متفاديًا سيوف خصومه ، ويهتف بجواده :

— الآن يا صديقي ..

انطلق به الجواد جانبًا ، بمحاذاة حافة الهوة ، في حين فوجيء القشتاليون بوجودها ، فجذبوا أعنة جيادهم ، ولكن الجياد تخبطت ببعضها البعض ، وتدافعت دون وعي ، فدفعت أمامها أقرب جوادين إلى حافة الهوة ..

وسقط الجوادان بفارسيهما في الهوة ..

وامتزج سهيل الجوادين بصرخة الفارسين ، مع هتاف الفرسان الثلاثة الباقين :

— اللعنة !

ثم أدار الثلاثة أعنة جيادهم ، وانطلقوا مرة أخرى يطاردون (مهاب) ، وقد ولد الغضب والرغبة في الثأر ، بركائلا من القوة والحماس في عروقهم ونفوسهم ، في حين اتخذ (مهاب) بجواده طريق العودة ، إلى حيث القافلة ، وهو يقول لجواده :

— حاول أن تسبقهم يا صديقي ، فربما كان (فارس) في حاجة إلى معاونة .

ولكن يبدو أن غضب القشتاليين قد انتقل إلى جيادهم ، التي نهبت الأرض نهبا ، وزادت من سرعة عدوها ، حتى تناقصت المسافة بينها وبين جواد (مهاب) في سرعة ، ولحقت به عند بداية طريق الأشجار ، الذي يقود مرة أخرى إلى حيث القافلة ..

وفجأة ، وجد (مهاب) نفسه محاطا بالفرسان الثلاثة .. وارتفعت السيوف الثلاثة في وجهه .. ولم يعد هناك مفر من القتال .. والتقت السيوف ..

وشعر (مهاب) بقلق حقيقي هذه المرة .. كان من الواضح أن خصومة الثلاثة من أقوى الرجال ، وأمهر الفرسان ، الذين قاتلهم في حياته كلها .. صحيح أنه أيضا فارس ومبارز لا يستهان به ، وأنه كان وما يزال ، واحدا من أقوى وأبرع فرسان العرب ، ولكن مواجهته ثلاثة من أقوى الرجال في آن واحد ، أمر يعجز عنه حتى أشد الفرسان ..

ومع هجومهم الغاضب الشرس عليه ، ارتفعت السيوف

فوق عنقه ..

وهوت ..

وضاع من قلبه كل أمل في النجاة ..

مضت لحظة قصيرة للغاية ، و (فرانثيسكو) يحدق في وجه (فارس) وزيه الأبيض ، وحرملته ونطاقه الخضراوين ، وهو يجلس بين أغصان الشجرة الضخمة فوق رأسه .. ثم قطع (فارس) هذا الموقف بصفير متصل طويل ، أطلقه من بين شفثيه ، دون أن يبالي بالفرسان الثلاثة ، الذين يندفعون لمؤازرة قائدهم ..

ولم يفهم الجميع في البداية ، ما الذي يعنيه هذا الصفير .. ثم ارتفع صهيل جواد ، من الناحية المقبلة .. وبرز (رفيق) ..

برز الجواد العربي الأبيض الأصيل ، من بين الأشجار ، دون سرج أو لجام ، وهو يعدو نحو (هاكل) ، الذي يفصله عن الشجرة الضخمة ، التي يعتليها فارسه ..

وأطلق (هاكل) ، شهقة ذعر ، وانحنى فوق جواده في خوف ، عندما وثب الجواد وثبة رائعة ، عبر بها اليهودي وجواده ، ثم اندفع نحو الشجرة ، فقفز (فرانثيسكو)

جانبا ، متفاديا الجواد القوي ، في حين تسمر الفرسان الثلاثة
الآخرون ، وهم يحدقون في ذلك المشهد في ذهول ..
وأمام كل العيون الذاهلة ، وثب (فارس) من فوق
الشجرة ، وانعكس الضوء عن خوذته الفضية ، ليغشى أعين
الفرسان الثلاثة ، قبل أن يستقر فوق متن جواده ، ويجذب
معرفة ، هاتفا :

— الآن يا (رفيق) .

ودون أن يضيع الجواد لحظة واحدة ، انطلق كالريح نحو
الجواد ، الذي يجذبه (هاكل) خلفه ، والذي يحمل الصندوق
المغطى بالحرير الأزرق ..

وصرخ (هاكل) ، وهو يلوح في ذعر :

— لا .. لا .. ابتعد .

وهنا انتبه (فرانثيكو) ، فصرخ بدوره ، مخاطبا
رجالہ :

— امنعوه .. أسرعوا .

انطلق الفرسان الثلاثة نحو (فارس) ، ولكن هذا الأخير
كان قد بلغ الجواد المنشود ، فاستل سيفه ، وقطع أربطة
الصندوق بضربتين سريعتين رائعتين ، ثم التقط الصندوق ، ذا
الغطاء الحريري الأزرق ، وانطلق يعدو مبتعدا ، و (هاكل) يصرخ :

— لقد سرق السيف .. السيف الذهبي .

انطلق الفرسان الثلاثة يطاردون (فارس) في إصرار ؛
لاستعادة السيف الثمين ، ولكن جواد (فارس) كان ينطلق
بسرعة مدهشة ، ويناور ويراوغ في مهارة منقطعة النظير ،
أدرك معها الفرسان الثلاثة أن لحاقهم به يعد مستحيلا فصاح
أحدهم في غضب :

— أمطروه بسهامكم .

سحب كل منهم قوسه ونشابه ، وصوبوا سهامهم إلى ظهر
(فارس) ..
وأطلقوها ..

وانحنى (فارس) ، متفاديا ذلك المطر القاتل ، المنهمر
عليه ، وهو يبحث جواده على الإسراع ، قائلا :

— انطلق أسرع يا (رفيق) .. إننا نواجه ثلاثة من
الأوغاد ، لايتورعون عن إطلاق سهامهم على ظهر الخصم .
لم يكذب ينطق القول ، حتى انتابه الحنق لهذا ، فأضاف في
غضب :

— وعلى الرغم من هذا ، فنحن نفر أمامهم كالجبناء .
التهب حماسه ونخوته لنفكرة ، ورأى موجة أخرى من السهام
تعبث من فوق رأسه ، فهتف بكل فورة الشباب في أعماقه :

— لا يا (رفيق) لن نهرب هكذا .



وبجذبة حاسمة لمعرفة جواده ، استجاب الجواد على الفور ،
 وتوقف ، ثم استدار يواجه الفرسان الثلاثة ..
 وبحركة غريزية ، امتزجت بتأثير المفاجأة ، أوقف
 الفرسان الثلاثة جيادهم أيضا ..
 ومضت لحظات طويلة من الصمت والسكون ..
 والتقت النظرات في تحد وحزم وصرامة ..
 وفي أعماقهم ، شعر الفرسان الثلاثة بالقلق والدهشة في آن واحد ..
 القلق لذلك الإجراء الانتحاري ، الذي قام به (فارس) ،
 وكأنه يتحدى ثلاثهم في حزم ..
 والدهشة لذلك الزى الذي يرتديه ، وذلك الجواد الذي يمتطيه ..
 لم يكن أحدهم قد واجه في حياته خصمًا كهذا ، لا يرتدي درعًا ،
 ولا يحمل مجنًا ، ولا يستخدم جواده سرجًا أو لجامًا ..
 كانت كل علامة منفردة ، من هذه العلامات ، تعني أن صاحبها فارس
 عظيم ، ومقاتل مغوار ، لا يشق له غبار ..
 فماذا لو اجتمعت كلها في فارس واحد ؟ ..
 ولكنه يتحداهم ، ويواجههم بكل ثقة وصرامة ..
 وهذا يطرح كل الأمور الأخرى جانبًا ..
 وفي حزم ، ألقى الثلاثة أقواسهم ، واستلوا سيوفهم ، و ..
 وبدأ القتال دفعة واحدة ..
 وبكل شراسة .

لم يكن أحدهم قد واجه في حياته خصمًا كهذا ، لا يرتدي درعًا ،
 ولا يحمل مجنًا ، ولا يستخدم جواده سرجًا أو لجامًا ..

٥ - السيف والقلم ..

كان من المستحيل ، على الرغم من دقة الموقف وصعوبته ، أن يستسلم قائد الفرسان السابق (مهاب) ، أمام أعدائه ، مهما صغر الأمل في فوزه عليهم ، ومهما تضاءلت فرصته في الفوز ..

لذا فقد استقبل (مهاب) السيوف الثلاثة على نصل سيفه في آن واحد ، وصدها بكل ما يملك من قوة ، وشعر بساعده يكاد ينهار تحت وطأتها ، فراجع في حركة سريعة ، وأفلت سيفه من السيوف الثلاثة ..

وأطلق الفرسان القشتاليون صيحة غضب ، وانقضوا عليه مرة أخرى ..

وفي هذه المرة ، كانت انقضاضتهم قوية مدروسة ، فلقد هاجمه أحدهم مباشرة ، والتف الثاني من خلفه ، في حين قطع الثالث حزام سرجه ، كما فعل هو سابقاً مع قائده (فرانثيسكو) ، وهو يقول في تشف :

— هذه هي البداية .

حاول (مهاب) أن يتشبّث بجواده ، على الرغم من انقطاع حزام سرجه ، وجرح بطن جواده ، ولكن ضربة سيف

القشتالي الأول أفقدته توازنه ، وأجبرته على السقوط أرضاً .. وانقضّ الفرسان الثلاثة على خصمهم للمرة الثالثة ، وأطلقوا صرخة شامته واعدة ، و ..

وفجأة ارتجّ الطريق الصخري بتلك الصرخة الهائلة المخيفة ..

صرخة ، أرجفت حتى قلوب فرسان الملك الثلاثة ، على الرغم من أنها قد أثلجت قلب (مهاب) ، الذي هتف :

— حمدًا لله .. إنه هو .

وفي نفس اللحظة ، التفت القشتاليون الثلاثة إلى مصدر الصرخة ..

وفي اللحظة التالية ظهر أمامهم (فهد) ..

برز ذلك الزنجي الأسود بفته ، على صهوة جواده الأدهم القوي ، كما لو كانت الأرض قد انشقت وأنجبتة ، دون سابق إنذار ..

ومع صرخته الثانية ، التي زلزلت القلوب ، هوى سيفه الضخم القوي ..

ورفع أحد القشتاليين الثلاثة سيفه ، في محاولة لصدّ سيف (فهد) ، ولكن سيف هذا الأخير هوى على سيفه كالصاعقة ، فاقتلعه من يده ، وأطاح به بعيداً ، ثم أدار (فهد) صفحة

سيفه ، وهوى بها على صدغ الفارس ، فاقتلعه من فوق
جواده ، وألقى به أرضاً ، ثم التفت إلى الفارسين الآخرين ..
ومن المؤكد أنها كانت تجربة مخيفة رهيبة ، بالنسبة للفارسان
الثلاثة ، فعلى الرغم من ثقتهم الشديدة ، في أنهم أقوى وأشجع
فرسان (قشتالة) ، فقد جرّدهم (فهد) من سيوفهم في
لحظات ، وألقى بهم من فوق جيادهم ، دون أن يصيبهم بخدش
واحد ..

وانطلقت الجياد تعدو مبتعدة ، وكأنما أصابها الرعب ، في
حين شعر القشتاليون الثلاثة بتوتر بالغ ، وهم يواجهون
(فهد) وسيفه القوي ، دون سلاح ، وتصوّروا في لحظة أن
(فهد) سيقتلهم دون رحمة ، وخاصة مع تلك النظرة المخيفة ،
المطلّة من عينيه ، إلا أن (مهاب) صاح بهم في صرامة :
— هيا .. ابتعدوا .

لم يصدّقوا آذانهم ، فانطلقوا مبتعدين ، قبل أن يعود عن
قرازه ، وخفض (فهد) سيفه ، وهو يراقب ابتعادهم في
صرامة ، في حين ابتسم (مهاب) في ارتياح ، وهو يقول له :
— كنت أعلم أنك ستظهر في الوقت المناسب يا رجل .
التفت إليه (فهد) في صمت ، فأضاف (مهاب) :
— ولكنني تصوّرت أنك ستقتلهم بلا تردد .

التقى حاجبا (فهد) ، وفتح فمه المغلق دائماً ، ليقول في
اقتضاب ، وبصوت عميق ، يبدو وكأنه يأتي من أعماق
سحيقة :

— كانوا على أرضنا .

هتف (مهاب) :

— على أرضنا ؟!

ثم انفجر ضاحكاً ، وهو يُرَبّت على كتف (فهد) القوي ،
مستطرداً :

— يا لشهامتك الطبيعية يا رجل .. إنك بالفعل عربي ،
من قمة رأسك حتى أخمص قدميك .

لم يبد على (فهد) أدنى قدر من الاهتمام ، بعبارة المدح ،
التي ألقاها (مهاب) على مسامعه ، بل تطلّع إليه بنظرة
صارمة ، وهو يسأله بكلمة شديدة الاقتضاب :

— أين (فارس) ؟

ضرب (مهاب) جبهته بإمضه ، وهو هتف :

— (فارس) ؟! .. يا إلهي ! ..

ثم أمسك كتف (فهد) ، مستطرداً في انفعال :

— أسرع بنا يا رجل ، فمن المؤكد أن (فارس) يواجه

الخطر وحده .. أسرع بنا بالله عليك .

عندما بدأ القتال ، بين (فارس) وخصومه الثلاثة ، كان هؤلاء يتوقعون هجوماً تقليدياً ، كذلك الذي تدرّبوا على مواجهته طويلاً ..

ولكن (فارس) لم يمنحهم هذا ..

لقد تلقى تدريباته على يد قائد الفرسان (مهاب) ، وتلمذ على يد أحكم حكماء (الأندلس) .. وهذا المزيج لا يستهان به ..

وعندما انقضّ على خصومه الثلاثة ، كان يعلم أنهم سيستعدون لمواجهته على نمط تقليدي ، وأن عليه أن يفاجئهم بنمط غير مألوف ، حتى يمنح نفسه نقطة تفوق عليهم ، تقلل من امتيازهم العددي ..

وهكذا فعل ..

لقد انطلق بجواده نحو فارس المنتصف مباشرة ، وكأنه سيلتحم معه بسيفه ، ثم جذب معرفة جواده في اللحظة الأخيرة ، نحو فارس اليمين ، هاتفاً :

— الآن يا (رفيق) .

وجاءت استجابة (رفيق) سريعة قوية كالمعتاد ، ووثب وثبة رائعة مذهلة ، وهو يُطلق صهيلاً قوياً ، وبدا في وثبته وكأنه سيضرب صدر فارس اليمين بجوافره ، مما جعل ذلك

الفارس ينحني متفادياً الوثبة ، فعبر (رفيق) بفارسه فوقه ، في نفس اللحظة التي أدار فيها (فارس) سيفه إلى اليسار ، وهوى به على سيف فارس المنتصف ، وهو يقبض على الصندوق ذي الغطاء الأزرق بعضده في قوة ..

وهبط (رفيق) خلف الفرسان الثلاثة ، الذين أصابهم الارتباك ، ثم استدار مرة أخرى ، استجابة لفارسه ، الذي لوّح بسيفه ، وهوى به على خوذة أحد الفرسان الثلاثة ، ثم دفعه في وجه الثاني دفعة مباغتة ، أفقدت الفارسين توازنهما في لحظة واحدة ، فسقطا عن جواديهما ، وهما يطلقان سباباً ساخطاً غاضباً ، جعل الفارس الثالث يهتف :

— ويلك أيها العربي .

ولكن (فارس) استقبل سيف القشتالي على حافة سيفه ، ودفعه بعيداً ، ثم هوى بدوره على القشتالي ، الذي صد الضربة بترسه ، هاتفاً :

— لن تنجح أيها العربي ، دون درع أو مجنّ .

رفع (فارس) سيفه ، وأداره في الهواء بسرعة مذهلة ، ثم هوى به على الجانب الأيسر من الفارس ، قائلاً :

— أتظن هذا أيها القشتالي .

أمال القشتالي ترسه إلى اليسار ، ليصد سيف (فارس) ،

إلا أن هذا الأخير راوغه بفتة ، وأمال سيفه إلى اليمين ، وضرب
سيف القشتالي ضربة فنية ، أطاحت به في مهارة ، فراجع
الفارس الملكي في دهشة ، و (فارس) يقول :
— ما رأيك يا رجل ؟

لم ينس القشتالي بيت شفة ، في حين جذب (فارس)
معرفة جواده ، وانطلق به مبتعدًا في سرعة ، وهو يحمل
الصندوق ، وهبّ الفارسان الساقطان إلى زميلهما ، وهما
يهتفان :

— فلنلحق به .

ضمّ القشتالي قبضته على عنان جواده في غضب ، وهو
يقول :

— لن نلحق به .

قفز أحدهما على متن جواده ، وهو يقول في غضب :

— فلنحاول .

صاح به زميله :

— لن نلحق به أبدًا .

توقّف الفرسان الثلاثة لحظة ، توثر خلالها المناخ بينهما في
شدة ، وكادوا يشبكون في مشادة عنيفة ، لولا أن غاب
(فارس) عن أبصارهم ، وحسم خلافهم ، ولم يعد أمامهم

سوى العودة إلى حيث يقف قائدهم (فرانشسكو) ، وهم
يجرون أذيال الحية ..
لقد هزمهم فارس عربي واحد ..
فارس من طراز خاص ..

تفجّر الغضب في وجه (هاكل) وصوته ، وهو يصرخ في
وجوه الفرسان :

— ثلاثة من العرب فحسب .. ثلاثة هزموكم ، يا أقوى
وأشجع فرسان قشتالة .. كيف تتوقعون أن تهزم العرب يوماً
إذن ؟

عقد (فرانشسكو) حاجبيه في ضيق ، وهو يقول :

— لقد باغتونا يا صاحب الفخامة ، ولم ..

قاطعه (هاكل) صائحاً :

— بل خدعوكم يا قائد الفرسان .. خدعوكم كما لو كنتم ثلثة
من الحمقى ، ونجحوا في الحصول على الصندوق ، الذي
يفترض أن تبذلوا أرواحكم ، في سبيل الحفاظ عليه .

قال (فرانشسكو) في حنق :

— لقد بذلنا أقصى جهدنا ، وفقدنا رجلين ، و ..

صرخ (هاكل) ، يقاطعه للمرة الثانية :

— وهذا أسوأ ما في الأمر .. أنكم قد بذلتم أقصى جهدكم ، فهو يعنى أنكم ، يا أعظم فرسان البلاط ، لا تساوون شيئاً أمام فرسان العرب ..

اندفع أحد الفرسان يقول :

— من المستحيل أن يكون كل فرسان العرب هكذا ، وإلا لما نجحنا في استعادة (قرطبة) منهم من قبل .. إنك لم تر هؤلاء الشياطين الثلاثة ، الذين قاتلناهم .. لقد كان أحدهم أشبه بشيطان أسود ، والآخر يقاتل كالوحوش ، أما ذلك الثالث ، ذو الرداء الأبيض ، فهو ..

قاطعته (هاكل) :

— كل هذا لا يعنينى .. المهم أنهم أخذوا الصندوق ..

وبدت لهم لهجته مخيفة ، وهو يستطرد :

— ولن يروق هذا لمولانا (فرناندو) أبداً ..

تبادل الفرسان العشرة نظرات القلق والتوتر ، وغمغم قائدهم (فرانشسكو) :

— كان المفروض أننا في حماية الأمير (عبيدة) ، ولم نتوقع

هجومًا مباغتًا كهذا ..

قال (هاكل) في انفعال :

— هذا صحيح ، ومن الضروري أن نستغل هذا جيّدًا ..

سأله (فرانشسكو) في دهشة :

— كيف ؟

تجاهل (هاكل) سؤال قائد الفرسان ، وقال في صرامة :

— أعطني واحدة من حمامنا الزاجل ..

أشار (فرانشسكو) إلى أحد رجاله ، فأتجه إلى جواد يحمل

قفصًا كبيرًا ، يمتلئ بالحمام الزاجل الأبيض الجميل ، فالتقط

منه واحدة ، وناولها إلى (هاكل) ، الذي ناولها بدوره إلى قائد

الفرسان ، قائلاً :

— أمسك هذه ، وأعطني قلمًا ورقعة رسائل ..

ناوله أحد الفرسان ريشته ومحبته ورقعة جلدية مضغوطة ،

فغمس (هاكل) ريشته في محبته ، وراح يخطّ بضع كلمات

على الرقعة الصغيرة ، فسأله (فرانشسكو) :

— ما هذه الرسالة ؟

أجابته (هاكل) ، وقد انتهى من الكتابة ، وراح ينفخ

الكلمات ؛ ليجفف الحبر :

— إنها سلاحنا الجديد ..

مطّ (فرانشسكو) شفّته في احتقار ، وهو يقول :

— سلاح ؟!

طوى (هاكل) الرقعة ، واستعاد الحمامة الزاجلة ، وراح

يربط الرقعة المطوية على ساقها في عناية ، وهو يقول في حث :
— نعم يا قائد الفرسان .. إننى وجلاله الملك قد قررنا
إدخال القلم كسلاح جديد في معركتنا .
وأطلق الحمامة ، التى رفرت بجناحها ، وانطلقت عائدة
إلى (قرطبة) ، وهو يستطرد :
— ولنر من ينتصر هذه المرة .. السيف أم القلم ؟
وابتسم ابتسامة كبيرة ..
وغامضة ..

لَوْح (فارس) بيده فى حرارة ، عندما لمح (مهاب) ،
وهو ينطلق نحوه ، على متن جواده ، وابتسم فى ارتياح ، عندما
بلغه هذا الأخير ، وقال :
— حمدًا لله أنك قد نجوت مثلى يا صديقى .. ماذا أصاب
حزام سرجك ؟
أجابه (مهاب) ضاحكًا :
— لقد انتقم أحد الفرسان ، لما أصاب قائده ، فمزَّق حزام
سرجى ، ولقد أصلحته قبل عودتى .
سأله (فارس) :
— وهل هزمت الفرسان الثمانية كلهم وحدك ؟

هزَّ (مهاب) رأسه نفيًا ، وقال :
— لا .. لقد عاوننى (فهد) .
اعتدل عنق (فارس) ، وهتف فى لهفة :
— (فهد) !؟ .. أين هو ؟ .. إننى أتوق لرؤيته .
رَبَّت (مهاب) على ذراعه ، وهو يقول مبتسمًا :
— ستراه عندما تحتاج إليه .
أوماً (فارس) برأسه ، وتتم فى ضيق :
— كالمعتاد .

أشار (مهاب) إلى الصندوق ، المغطى بالحرير الأزرق ،
وهو يقول :

— هل نجحت فى الحصول على السيف ؟
أوماً (فارس) برأسه إيجابًا ، وقال فى شيء من الزهو :
— نعم .. لقد أنينا المهمة هذه المرة فى زمن قياسي .
تنهَّد (مهاب) فى ارتياح ، وقال :
— حمدًا لله .
ثم أضاف فى فضول :
— دعنا نلقى عليه نظرة .
قال (فارس) فى حزم :
— لا .. ليس قبل أن نصل إلى الشيخ .

لُوح (مهاب) بكفه ، قائلاً :

— هيا يا فنى .. لا داعى للعناد .. من الضرورى أن نتأكد
من أننا قد حصلنا على ما نبتغى .

صمت (فارس) لحظات مفكراً ، ثم قال :

— نعم .. أنت على حق .

وأزال الغطاء الحريرى الأزرق فى رفق ، ثم فتح الصندوق
المستطيل ، وهو يقول :

— نظرة واحدة فحسب .

وأطلق (مهاب) شهقة انبهار ، عندما انفتح الصندوق ،
ووقع بصره على السيف الذهبى ، ومقبضه المخلّى بالأحجار
الكريمة ، وهتف :

— ياله من تحفة رائعة !

هز (فارس) كفيه ، وقال :

— إنه جميل ، ولكنه لا يهينى مثلك .

ضحك (مهاب) ، وهو يقول :

— لقد نجح الشيخ ، فى أن يحصنك ضد إغراء الذهب .

ثم مَدَّ يده ليمسك السيف ، فأبعده (فارس) عن أصابعه ،

قائلاً فى حزم :

— قلنا إنها نظرة واحدة فحسب .

ولكن أصابع (مهاب) كانت قد لمست السيف بالفعل ،
فأعادها إلى جواره ، وهو يقول :

— للأسف .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلع إلى أصابعه فى
دهشة ، قبل أن يهتف :

— افتح الصندوق يا (فارس) .. دعنى أختبر ذلك
السيف اللعين .

لم يعترض (فارس) هذه المرة ، فقد أدرك من لهفة
(مهاب) أن شيئاً ما قد حدث ، فأسرع يفتح الصندوق ،
ويدينه من (مهاب) ، الذى أمسك السيف ، وانتزعه من
مكانه ، ثم صاح فى غضب وغيظ :

— اللعنة ! .. لقد خدعنا هؤلاء الأوغاد .

سأله (فارس) فى توتر :

— ماذا هناك ؟

ألقي (مهاب) السيف أرضاً فى حنق ، وهو يهتف :

— إنه سيف زائف .. زائف .

وكانت مفاجأة مذهلة .

٦ - الخدعة ..

كان الملك (فرناندو) قد انتهى من إدارة شئون البلاط منذ قليل ، وعاد إلى جناحه الخاص ، وخلع عن رأسه تاج الملك ، وتمدد فوق مقعده الوثير ، عندما اقتحمت الملكة (إيزابيلا) المكان في عنف ، وخلفها الحارس الخاص لـ (فرناندو) ، الذي ارتبك وهو يقول :

— عفواً يا مولاي .. مولاتي الملكة لم تمنحني وقتاً للاستئذان .

اعتدل (فرناندو) في هدوء ، وهو يشير إلى الحارس ، قائلاً :

— لا عليك يا رجل .. مولاتك الملكة صاحبة الحق ، في دخول أية حجرة من حجرات القصر ، حتى الجناح الملكي . تراجع الحارس في سرعة ، وأغلق الباب خلفه ، في حين ارتسمت على شفتي (فرناندو) ابتسامة شبه ساخرة ، وهو يقول :

— مرحباً بملكة (قشتالة) و (ليون) ، في جناح ملك (أرجون) المتواضع .

اندفعت نحوه في ثورة غاضبة ، وهي تقول :



فقد أدرك من لفة (مهاب) أن شيئاً ما قد حدث ، فاسرع يفتح الصندوق ..

— ما الذى تفعله من وراء ظهري ؟

هز كفيه في لا مبالاة ، وقال :

— وما الذى يمكننى أن أفعله من وراء ظهرك ، يا ملكة

الملكات ؟

ضربت مقعده بقبضتها في غضب ، وهى تقول :

— لقد أرسلت (هاكل) إلى أحد أمراء العرب ، حاملاً

سيفاً من الذهب ، يساوى ثروة كاملة .

نهض من مقعده في هدوء ، وهو يقول :

— وماذا في هذا ؟

صرخت :

— لماذا أخفيت الأمر عنى ؟

التفت إليها في برود ، وهو يقول :

— لأن النساء لا يمكنهن الحفاظ على الأسرار يا عزيزتى .

صاحت في حنق :

— لست مجرد امرأة في بلاطك يا (فرناندو) .. إننى

ملكة .. ملكة من أعظم سلالات الملوك .

عقد حاجبيه ، قائلاً في حدة :

— ولكنك امرأة .

صاحت :

— وهل حفظ الرجال أسرارك ؟ .. القصر كله يعلم كل

تفاصيل خطتك هذه ، ولست أستبعد أن يكون أمير العرب

نفسه على علم بها .

هز كفيه ، قائلاً :

— وماذا في هذا ؟ .. دعيه يعلم ما يحلو له .

وصبّ لنفسه كأساً من الخمر ، وهو يستطرد :

— لقد أرسلت رسولاً إلى الأمير (عبيدة) ، أطلب منه

استقبال (هاكل) وطاقم حراسته في قصره ، وإحاطتهم

بحمايته ، منذ عبورهم حدود (الأندلس الصغرى) ، وحتى

وصولهم إلى قصره ، ولقد وافق الأمير ، وهو يجهل الغرض من

زيارة (هاكل) له ، وهذه الموافقة تعنى الكثير عند العرب ،

وسيعتبر (عبيدة) أن هذه القافلة تخصه شخصياً ، ولن يفتر

أى مساس بها .

قالت في حدة :

— لو أن أمير (غرناطة) شعر أن القافلة تمثل خطراً عليه ،

فسياجمها حتماً ، حتى ولو أغضب هذا الأمير (عبيدة) .

ابتسم في سخرية ، وقال :

— من الواضح أنك تجهلين كل شيء تقريباً عن العرب ..

صحيح أن الأمير (عبيدة) يخضع لأمير (غرناطة) ، إلا أن

هذا الأخير لا يستطيع مهاجمة قافلة ، أسبغ عليها (عبيدة)
حمايته ، فسيعدّ هذا إهانة مباشرة لـ (عبيدة) ، وقد يدفعه إلى
شن حرب محلية على أميره ، وفي هذا فائدة لنا .

بدا عليها الضيق ، كما لو كانت تمنى أن تفشل خطته ،
لثبت له أنه ليس أكثر ذكاءً منها ، وقالت في توتر :
— ليس هذا هو الخطر الوحيد .

لاحظت أنه لا يستمع إليها ، وأنه يتطلع في اهتمام إلى حمامة
بيضاء ، تتجه صوب برج القصر ، فهتفت به في غضب :
— (فرناندو) .. إننى أتحدّث إليك .

التفت إليها ، وعيناه تبرقان ببريق خاص ، وقال :
— نعم يا عزيزتى (إيزابيلا) .. إننى أستمع إليك .
قالت في حدة :

— قلت إن هذا ليس الخطر الوحيد ، الذى يواجه سيفك
الذهبي .

قال في سخرية أحققتها :

— حقاً ؟!

ثم ارتشف رشفة من كأسه ، قبل أن يضيف :

— وما الأخطار الأخرى ، التى تواجهه ؟

قالت في عصبية :

— محارلات السطو مثلاً .

رفع حاجبيه ، وهو يقول :

— نعم .. هذا محتمل .

أثلج هذا القول صدرها ، فلقد بدا لها أشبه باعتصاف
فشل ، وهمت بقول شيء ما ، لولا أن ارتفعت دقات على باب
الجناح الملكى ، فأسرع (فرناندو) إلى الباب ، وهو يقول :
— ادخل .

دلف إلى الجناح جندى صغير ، أذى التحية للملك ، ثم
ناوله الرقعة الجلدية المطوية ، التى أرسلها (هاكل) ، ففضتها
(فرناندو) فى سرعة ، وهو يشير إلى الجندى بالانصراف ،
وقراها فى لهفة ، قبل أن يرفع عينيه إلى (إيزابيلا) ، ويقول :
— لقد كتب على حق يا عزيزتى (إيزابيلا) .

خفق قلبها ، وهى تسأله :

— ماذا حدث ؟

أجابها فى هدوء :

— لقد تعرّضت قافلة (هاكل) لحادث سطو .

هتفت به :

— وماذا حدث للسيف الذهبى ؟

أجابها مبتسماً :

— لقد سرقة اللصوص .

لم تدبر أنتفجر باكية ، أم تطلق ضحكة شامته عالية ، وهي تقول :

— سرقوه .

بادرها في سرعة :

— هكذا يتصورون .

تجمدت كل الانفعالات في أعماقها ، وهي تسأله في دهشة :

— ماذا تعنى !؟

أجابها ، وشفته تحملان ابتسامة ساخرة عريضة :

— لقد هاجموا القافلة ، وسرقوا الصندوق ، الذي يحوى

السيف الذهبى في تصورهم ، وأتمنى رؤية وجوههم ، عندما يكشفون أن ماسرقوه مجرد سيف زائف من الفولاذ ، تم طلاؤه بطلاء ذهبى فحسب .

انهارت آمال هزيمته في أعماقها ، وتمتعت :

— هل كنت تتوقع هذا ؟

قهقهه ضاحكاً في ظفر ، وهو يقول :

— بل هو (هاكل) الداهية ، الذى وضع هذا الاحتمال في

الاعتبار ، وابتكر فكرة السيف الزائف ، بل وانخبأ المناسب

للسيف الحقيقى .

تتمت في مرارة :

— باله من داهية !

قهقهه (فرناندو) مرة أخرى في ظفر ، وقال :

— ما يدهشنى أكثر ، هو أن ذلك الثعلب (هاكل) قد

توقع مسبقاً طبيعة هؤلاء اللصوص الزائفين ، الذين سيسعون

لسرقة السيف الذهبى ، وهذه الرقعة الواردة منه الآن ، تشير

إلى أن توقعاته كانت صحيحة .

سألته في حيرة :

— ومن هؤلاء اللصوص ؟ .. وما الذى تعنيه بأنهم

زائفون ؟

مال نحوها ، وهو يقول :

— لقد كانوا ثلاثة رجال يا عزيزى (إيزابيلا) .. أحدهم

أشيب الفودين ، متين البيان ، والثانى زنجى أسود قوى ، أما

الثالث ، فهو شاب صنديد ، يرتدى خوذة فضية ، ورداد

أبيض ، وحرملة ونطاقاً خضراوين ، و ..

قاطعته هاتفة :

— أتقصد أنه ..

قاطعها بدوره ، قائلاً :

— نعم يا عزيزتي (إيزابيلا) .. إنه خصمنا الحالي ، وابن
خصمنا القديم .. ذلك انفارس الأبيض ، الذي يستعين به أمير
(غرناطة) ، في كل أعماله السرية .
ورفع كأسه ، وقد برقت عيناه ببريق لا مثيل له ،
مستطرذا :

— وستكون هذه عملية الأخيرة .. وهذا وعد ملكي .
وكعادته ، جرع ما تبقى من كأسه دفعة واحدة ..

عقد الأمير (عبيدة) حاجيه في غضب ، وهو يهت من
مجلسه ، هائفاً :

— هاجمك اللصوص !؟ .. ويل لهؤلاء الملاحين .. كيف
يجرؤون على التصدي لقافلة يحميها (عبيدة) ؟
قال (هاكل) ، وكأنه يحاول تهدئة الأمير :
— رويدك يا أمير العرب .. اللصوص هم اللصوص ، في
كل مكان وزمان ، ولكن ما يدهشني هو كيف علموا بأمرنا ؟
لوح (عبيدة) بذراعه في حلق ، وهو يقول :
— الجميع كانوا يعلمون بأمر قدومكم ، يا رسول
القشتاليين ، فلقد أعلنت هذا بنفسى ، وطالبت الجميع بعدم
التعرض لكم ، حتى تصلوا إلى قصرى في أمان .

ابتسم (هاكل) في دهاء ، وهو يقول :
— ليس هذا ما أقصده يا سيدي ومولاي ، وإنما أقصد أن
مولاي الملك (فرناندو) ، كان قد أرسل معنا حملاً ثميناً ،
لست أدري كيف علم اللصوص به .
سأله (عبيدة) في اهتمام :

— أى حمل هذا ؟

حرّك (هاكل) أصابعه في الهواء ، وهو يقول :
— إنه سيف ذهبي .. سيف من الذهب الخالص ، يرصع
الماس والزمرد والياقوت والزبرجد مقبضه .. إنه تحفة من تحف
الزمان يا أمير الأمراء .

برقت عينا الأمير (عبيدة) في لطفة ، وهو يقول في حلق :
— وهل سرق اللصوص هذا السيف الرائع ؟
قال (هاكل) في خبث :

— لقد تصوّروا أنهم قد فعلوا يا مولاي ، ولكنهم سرقوا في
الواقع سيفاً زائفاً .

— سأله الأمير (عبيدة) في لطفة :

— وأين السيف الحقيقي ؟

أزاح (هاكل) حرملته الحمراء ، وجذب مقبض سيفه ،
وهو يقول :

— ها هوذا .

انجذب المقبض الجلدي في يده ، كاشفاً تحته مقبضاً مرصعاً بالأحجار الكريمة ، التي تآلفت تحت أضواء المشاعل ، قبل أن يخفيها (هاكل) بقبضته ، وهو يجذب السيف الذهبي من غمده ..

وشهق (عبيدة) في انبهار ، وهو يحدق في السيف الذهبي البراق ، ونصله الذي تلمع فوقه عشرات الشموس الصغيرة ، من انعكاسات مشاعل القاعة ، ومد يده يلتقطه من يد (هاكل) ، قائلاً :

— يالها من تحفة نادرة !!

— تركه (هاكل) يتحسس السيف الذهبي ، ويتطلع إليه بعض الوقت ، قبل أن يقول :

— إنه مجرد هدية متواضعة ، من مولاي الملك (فرناندو) ، لسمو الأمير (عبيدة) ، أمير (غرناطة)

المقبل .

رفع (عبيدة) عينه إليه في حدة ، وهو يردد :

— أمير (غرناطة) المقبل !!

هتف (هاكل) :

— بالتأكيد .. لمن تتصور أننا سنبه عرش (غرناطة) ،

بعد أن نستعيدها ؟

هتف (عبيدة) في غضب :

— ويحك يا رسول (قشتالة) .. هل توقع ملكك أن يرشوني بسيف من الذهب ؛ لأتخلى عن قومي ، وأسلمكم (غرناطة) ؟

قال (هاكل) ، دون أن تفارقه ابتسامته

— تسلّمنا (غرناطة)؟! .. وهل نحتاج إلى من يسلمنا (غرناطة) أيها الأمير ؟ .. إن جيوشنا تحتشد على حدود مملكتم الصغيرة ، وسنقتحم (غرناطة) بين ليلة وأخرى .. وينبغي أن تعلم أن جيوشكم لن تصمد أمامنا أسبوعاً واحداً .

صاح (عبيدة) في غضب :

— هل أتيت لتردد هذه السخافات على مسامعي يا قشتالي ؟

أشار (هاكل) بسبابته ، قائلاً :

— إنها ليست سخافات يا مولاي ، بل حقائق .. وأميركم سيد بني (الأحمر) يعلمها جيّداً ، فجيشتنا لم يعد يعتمد على فرسان قشتالة وحدها ، بل انضم إلينا جيش الإنجليز ، وجيوش (فرنسا) ، وأصبحنا قوة قادرة على سحق جيشكم بضربة واحدة .

شعر (عبيدة) بالتوتر ، وهو يقول :
— أنت تكذب أيها القشتالي ؛ فلو أنكم علي هذا القدر من
القوة ، لما حاولت إغرائي بالانضمام إليكم .

هز (هاكل) كفيه ، وقال :

— وهل طلبت منك هذا ؟

قال (عبيدة) في حدة :

— ليس علي نحو مباشر ، ولكن هذا السيف ..

قاطعته (هاكل) :

— لا يامولاي ، لا توجه إلى اتهامًا جارحًا كهذا ، مجرد

شكوك بلا دليل .

تطلع إليه (عبيدة) لحظات في صمت غاضب ، ثم قال في

صرامة وحزم :

— اسمع يا رسول (قشتالة) .. لقد منحتك وقاقلتك

حميتي ، ووافقت على استقبالكم في قصرى ؛ لأننى كنت

أتصور أنكم ستفاوضون بشأن الصراع الدائر بيننا ، ولكننى

لم أتصور أبدًا أنكم هنا لرشوتى ، حتى أخون موطنى وقومى .

حاول (هاكل) أن يتحدث ، قائلاً :

— مولاي .. إنا ..

قاطعته (عبيدة) في حدة :

— لست مستعدًا لمناقشة هذا الأمر الآن .. إننى أسبغ
عليكم حميتى حتى فجر انغد فحسب ، ومع أول شعاع شمس ،
أريد منكم أن تكونوا خارج قصرى ، وإلا فلست مسئولاً عما
قد يصيكم بعدها .

واندفع مغادرًا المكان كعاصفة ثائرة ، تاركًا خلفه صمتًا
مطبّقًا ، قطعته (فرانشسكو) ، الذى لم ينبس ببنت شفة ، منذ
بداية الحديث ، وقال في توتر :

— أيعنى هذا أن مهمتنا قد فشلت يا صاحب الفخامة ؟

هز (هاكل) رأسه نفيًا ، وقال في خبث :

— ليس بعد .

ثم أشار بطرف خفى إلى الزنجى ، الذى يرفع الأكواب عن

المائدة ، هامسًا :

— أخشى أن أخبرك ، أمام هذا الخادم .

هز (فرانشسكو) كفيه في لا مبالاة ، وقال :

— اطمئن يا صاحب الفخامة .. إنه أصم أبكم .. لقد

تأكدت من ذلك بنفسى .

تطلع (هاكل) إلى الخادم في اهتمام ، ثم صرخ فجأة :

— التفت أيها الغيبى .

انتفض (فرانشسكو) للصرخة المباغته ، في حين لم يهتز

رمش واحد في جنس الزنجي ، الذي واصل عمله في هدوء ،
وهتف (فرانشسكو) :

— لماذا فعلت هذا يا صاحب الفخامة ؟

ابتسم (هاكل) ، وهو يقول :

— ليطمئن قلبي فحسب يا قائد الفرسان .

ثم مال نحوه ، مستطرذا :

— والآن استمع إليّ جيّداً ، فسأخبرك بما لدى .

وقصّ على مسامعه كل شيء ..

وكانت خطته رهيبة ..

ومخيفة .



ثم أشار بطرف خفي إلى الزنجي ، والذي يرفع الأكواب عن المائدة ،
هامساً : أخشى أن أجورك ، أمام هذا الخادم ..

على الرغم من ذلك الغضب ، الذي يملأ نفس (فارس) ،
بعد أن خدعه القشتاليون ، ودفعوه للمخاطرة بحياته ، في سبيل
سيف زائف ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يستغرق في نوم عميق ،
على بعد مائتي متر من أسوار قصر الأمير (عبيدة) ، وهو يعلم
أن خصومه بالداخل ..

هكذا علمه الشيخ ..

أن يضمن جسده وعقله الراحة المناسبة ، قبل خوض أية
معركة عنيفة ، حتى لا يُضعف السهر والأرق والتعب من
صفاء ذهنه ، وسرعة استجابته ، وقدرته على القتال وتقدير
الأمر ..

وعندما حصل جسده على قسط كافٍ من النوم ، فتح عينيه
في ببطء ، وتساءب في عمق ، وهو يغمغم :

— حان دورك يا صديقي (مهاب) .

عقد حاجبيه في قلق ، عندما لم يجد (مهاب) على مقربة
منه ، كما كان ينتظر ، فهبَّ جالساً ، والتفت إلى جواده ،
يسأله :

— أين (مهاب) يا (رفيق) ؟

أطلق الجواد صهيباً خافقاً ، وهو يبرز معرفته في رفق ،
وكأنما فهم سؤال صاحبه ، وأعلن جهله بالجواب ، فنهض
(فارس) في حزم ، واستل سيفه ، وهو يدير عينيه في المكان في
توتر ، محاولاً اختراق حجب الظلام ببصره ، بحثاً عن مدرَّبه
وصديقه ..

كان يخشى أن يكون أحد القشتاليين قد ظفر
بـ (مهاب) ، وأخذه على حين غرة ..

ولكن أذنيه التقطاً حديثاً هامساً ، يدور على مقربة منه ..
وبكل الحذر في أعماقه ، اتجه (فارس) على أطراف
أصابعه إلى حيث الصوت ..

وميز في وضوح صوت (مهاب) ، وهو يهمس لشخص
ما :

— حسناً فعلت يا رجل .. هيا .. عد إلى القصر ، وحاول
أن تجمع المزيد ، واستعد لتنفيذ الخطة .

لم يسمع (فارس) جواب ذلك الشخص ، الذي تحدَّث
إليه (مهاب) ، ولكنه سمع صهيل جواد ، ثم وقع حوافره
تبعاً في سرعة ، ورأى (مهاب) يخرج من خلف بعض
الأغصان المتشابكة ، ويقول مبتسماً في هدوء :

— مرحباً يا (فارس) .. متى استيقظت ؟

سأله (فارس) :

— مع من كنت تتحدث ؟

أجابه (مهاب) في بساطة :

— مع (فهد) .

سأله (فارس) في هفة :

— وما الذى فعله (فهد) هذه المرة ؟ .. وما الذى يفعله

في القصر ؟

أجابه (مهاب) ، وهو يتمنطق بسيفه ونطاقه :

— لقد فعل الكثير كالمعتاد .. إنه الآن داخل القصر ، في

هيئة خادم من خدم الأمير ، والكل يتصور أنه أبكم أصم .

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

— من المؤكد أنه يجيد هذا الدور تمامًا .

وافقه (مهاب) بإيماءة من رأسه ، وقال :

— هذا صحيح ، ولقد جمع من موقعه هذا بعض المعلومات

البالغة الخطورة ، بشأن القشتاليين وسيفهم الذهبى .

سأله (فارس) في اهتمام :

— ما الذى جمعه بالضبط ؟

أجاب (مهاب) :

— لقد رفض الأمير (عبيدة) قبول السيف الذهبى ،

وأبلغ القشتاليين أنه يرفع حمايته عنهم ، اعتبارًا من فجر الغد ،
وطالبهم بمغادرة قصره قبل هذا الموعد ، ولكن من الواضح أن
رسول (فرناندو) هذا داهية خبيث ، فلقد أرسل أحد رجاله
إلى الأمير (زياد) ، يطلب حمايته ، ويعلن أنه سيذهب إليه
غداً ، كما أطلق الرجال الثمانية الباقين في أنحاء القصر ، يدرسون
مخارجه ومدخله ، وقائدهم (فرانشسكو) يرسم خريطة
دقيقة له ، ستفيد هؤلاء الأوغاد حتمًا ، إذا ما هاجموا القصر
يومًا .

تعم (فارس) في ضيق :

— ياله من دهاء !!

أكمل (مهاب) :

— والأغرب أن رسول (فرناندو) يعلم أنك أنت

بالذات خلف الهجوم عليهم ، ومحاولة سرقة السيف الذهبى ،

ويبدو أنهم يحسبون حسابك جيدًا .

قال (فارس) في حزم :

— هذا يملؤنى فخراً وزهواً .

أجابه (مهاب) :

— ومن الضرورى أن تضيف إليهما شدة الخدر والحرص ،

فمن المؤكد أن ذلك اليهودى يعد لك فخًا ما .

هز (فارس) كفيه في لا مبالاة ، وقال :

— فليعد ما يحلو له .

عقد (مهاب) حاجبيه ، وقال في صرامة :

— لا تستهن بخصمك أبداً يا (فارس) .

قال (فارس) في صوت مفعم بالثقة :

— لم أستهن به يا مدرّبي ، ولكنني بدأت أفهم شخصيته

وأسلوبه ، وهذا يساعدي على أن أضع خطتي الخاصة ؛

لهزيمته .

تطلّع إليه (مهاب) في صمت ، قبل أن يتسم قائلاً :

— أتعلم يا (فارس) .. لقد حصلت على أعظم مزيج ،

يمكن أن يحصل عليه شاب في مثل عمرك ؛ فلقد تتلمذت على

يدي ، في فن الفروسية والقتال ، وتعلّمت الحكمة من الشيخ ،

أحكم حكماء (الأندلس) ، وورثت عن والدك — رحمه

الله — قوة الشكيمة ، ورجاحة العقل ، وحسن المنشأ والمختد ،

و ..

قاطعه (فارس) :

— كفى يا صديقي .. لست أهوى سماع المديح .

ثم استطرد في سرعة ، وكأنه يتعد عن هذا الأمر :

— ولكن أخبرني .. كيف يتصل ذلك اليهودي بالملك ؟

أشار (مهاب) بأصابعه ، قائلاً :

— بالحمام الزاجل .. لقد أحضر معه عددًا كبيرًا منه .

هز (فارس) رأسه ، متممًا :

— إذن فهذه هي وسيلة الاتصال .

ثم التفت إلى القصر ، وابتسم مستطردًا :

— حسنًا .. لقد عرفنا كل ما يمتلكه الخصم .

وعاد يدير رأسه إلى (مهاب) مضيفًا :

— وحانت لحظة القتال .

تسلّل (فرانثيسكو) إلى الحجرة ، التي خصصها الأمير

(عيدة) لـ (هاكل) ، وناوله رقعة جلدية رقيقة ، وهو

يقول :

— ها هوذا رسم القصر وتحصيناته .

برقت عينا (هاكل) ، وقال :

— رائع .. لقد حققنا هدفنا ، فيما يختصّ بهذا القصر ،

وسنتقل فجر الغد إلى قصر آخر ، فإما أن ننجح في استمالة

صاحبه إلى صفوفنا ، أو نكشف تحصيناته ، ونربح نقطة تفوق

جديدة ، على هؤلاء العرب .

ثم اتجه إلى قفص الحمام الزاجل ، والتقط منه واحدة ، ربط

الرقعة حول ساقها في عناية ، وحملها إلى النافذة ، فأطلقها
قائلًا :

— هيا .. عودي إلى (قرطبة) ، وانقلي أول دلائل فوزنا
إلى مولاي الملك .

سأله (فرانيسكو) في اهتمام :

— ألا تتوقع أن يهاجمنا ذلك الفارس الأبيض مرة أخرى ،
ويحاول سرقة السيف الذهبي الحقيقي ؟

ابتسم (هاكل) في دهاء ، وقال :

— بل أنا واثق من أنه سيهاجمنا هنا حتمًا ، ولقد أعددت كل
شيء ليفعل ، فلقد طليت السيف الذهبي الزائف بطلاء غير
ثابت ، حتى يكشف زيف السيف في سرعة ، فيجن جنونه ،
ويصر على استعادة السيف منا ، وسيحتال لدخول هذا
القصر ، ويحاول استعادة السيف الحقيقي ، وهنا سنصرخ بأن
العرب قد خدعونا وخانونا ، وأرسلوا من يقتلنا في ضيافتهم ،
وسيثير هذا ثائرة الأمير (عبيدة) ، فيقاتل ذلك الفارس
الأبيض ، ويسجنه ، أو يقتله ، وستربح نحن في الحالين .

هتف (فرانيسكو) :

— يالك من داهية !

ثم ارتبك مستدركا :

— عفوا يا صاحب الفخامة .. إنما كنت أعنى .

أشار إليه (هاكل) ، قائلًا :

— لا عليك يا قائد الفرسان .

ثم ابتسم مغمغماً :

— إنني بالفعل داهية

وقهقه ضاحكًا في فخر ..

لم يكد القمر يتوسط السماء ، في تلك الليلة ، حتى تعلق
خطاف معدني بحافة سور القصر ، وتدلأ منه جبل قوى ، انتهى
في قبضة (فارس) ، الذي همس لـ (مهاب) :

— اتبعني يا صديقي .

قال (مهاب) في قلق :

— أشعر أننا نرتكب خطأ ما ، فالقمر بدر ، والسماء
خالية من السحب والغيوم ، وضوء القمر يغمر كل شيء ، كما
لو كان شمسًا فضية صغيرة .

أجابته (فارس) ، وهو يبدأ في تسلق الجبل :

— اطمئن يا صديقي ، فالحراس يفقدون حذرهم الزائد ،
في مثل هذه الليالي ؛ لأنهم لا يتصورون أن أحدًا يمكنه المغامرة
بتسلق الأسوار فيها .

قيد الجندي في إحكام ، وأرقله إلى جوار حائط البرج ،
وهو يقول :

— معذرة يا رجل .. إنك لست المقصود بالتأكيد .

سأله (مهاب) :

— متى نهاجم ؟

أشار (فارس) إلى نافذة حجرة (هاكل) ، وقال :

— عندما ينطلق سرب الحمام من هذه النافذة .

ثم جلس ينتظر ..

ساد الهدوء والصمت جوانب قصر الأمير (عبيدة) ، بعد
أن أوى الجميع إلى فراشهم ، والتزم الحراس الهدوء ، وتسلل
(فهد) عبر ممرات القصر في خفة وسرعة ، وهو يتأكد من أن
أحدًا لا يتبعه حتى بلغ حجرة (هاكل) ، فدفع بابها في حذر ،
ودلف إليها ، ثم توقف ليطمئن إلى أن أحدًا لم يشعر بتسلله إليها ،
وألقي نظرة سريعة على (هاكل) ، الذي غط في نوم عميق ،
ثم اتجه على أطراف أصابعه إلى قفص الحمام ، وأخرج من حزامه
خنجرًا حادًا ، مزق به أربطة القفص ، وأدناه من النافذة
المفتوحة ، وترك الحمامات تنطلق منه متحررة ، ثم عاد
أدراجه ، ليضع القفص في موضعه ..

قال (مهاب) ، وهو يتبعه :

— وماذا لو أن أحدهم غمغم التفكير مثلى ؟

ابتسم (فارس) ، وقال :

— فلندع الله ألا يكون بينهم مثل هذا الرجل .

وإصلا تسلفهما في خفة وصمت ، حتى بلغا حافة السور ،

فتطلع (فارس) يمينه ويسرة ، ولمح حارسًا يتحرك نحو البرج

الغربي للقصر ، فهمس لـ (مهاب) :

— انتظري لحظة .

ووثب إلى أعلى السور كقط حذر ، ثم تحرك في خفة نحو

الجندي ، الذي واصل سيره في خطوات عسكرية ، حتى بلغ

حائط البرج ، فاستدار ليقطع طريق العودة ، ولكنه فوجئ

بـ (فارس) أمامه ، فهتف :

— من أنت ..

وقبل أن يتم هتافه ، كانت قبضة (فارس) قد هوت على

فكه كالصاعقة ، وأسقطته فاقد الوعي ، في نفس اللحظة التي

قفز فيها (مهاب) إلى أعلى السور ، وقال هامسًا :

— رفقا بهم يافتي .. إنهم عرب مثلنا .

غمغم (فارس) :

— كنت مضطرًا لهذا .

وفجأة ، هبّ (هاكل) من فراشه ، هاتفاً :
— من أنت ؟

وقبل أن يتحرك (فهد) نحوه ، كان اليهودي يهتف :
إلى يا رجال .

وفجأة اندفع ثلاثة من الفرسان القشتاليين إلى الحجرة ،
من باب جانبي ، وهم يحملون المشاعل ، واستل كل منهم
سيفه ، وهم يحدقون في وجه (فهد) ، قبل أن يهتف أحدهم :
— إنه أحد اللصوص الثلاثة .

وهنا انقض عليهم (فهد) ..

لم يكن يحمل سيفاً أو مجناً ، ولكنه هاجمهم بخنجره فقط ، في
شجاعة منقطعة النظير ، دون أن يطلق صرخته المعتادة ..

وبضربة من خنجره ، أسقط (فهد) أول الفرسان
الثلاثة ، ولكن الثاني ضربه بسيفه على ذراعه ، فراجع

(فهد) في سرعة ، وشعر بالسيف يضرب جلد ذراعه ،
ويمزقه ، وبالدماء تسيل على ذراعه ، فانقض على مهاجمه ،

وغرز خنجره في صدره ، وشعر بسيف الثالث يضرب حافة
عنقه ، ويصيبه بجرح سطحي ، سالت منه الدماء في سرعة ..

واندفع أربعة فرسان آخرون من الحجرة الجانبية ..

وكان على (فهد) أن يواجه هؤلاء الأربعة ..

ولم يكن هذا ممكناً هذه المرة ..

لم يكن ممكناً أبداً .



قيد الجندي في إحكام ، وأرقده إلى جوار حائط البرج ، وهو يقول :

— معدرة يا رجل .. إنك لست المقصود بالتاكيد ..

١ - قتال في الحصن ..

أشار (فارس) إلى أزواج الحمام ، التي انطلقت من نافذة
حجرة (هاكل) ، وقال :

— ها هوذا العدو قد فقد أدوات اتصاله .

قال (مهاب) في حماس :

— هل نقضَ عليه الآن ؟

أجابه (فارس) :

— نعم .. سنصطاد رجاله أوّلاً .

استلّ (مهاب) سيفه ، وهو يقول :

— إنهم يقيمون جميعاً في الحجرة المجاورة له ، كما أخبرني

(فهد) ، فيما عدا قائدهم ، الذي يقيم مع أحدهم ، في حجرة
عند طرف الممر نفسه .

قال (فارس) :

— دعنا نهاجم القائد أوّلاً ، فهذا يُضعف الفريق كله

عادة ، كما يقول الشيخ .

همّ بالتحرك ، ثم توقّف فجأة ، وقال :

— مهلاً .. هناك شيء ما يحدث ، داخل حجرة ذلك

اليهودي .

انعقد حاجبا (مهاب) في شدة ، وهو يهتف :

— يا إلهي !.. لقد كشفوا أمر (فهد) ، وهم يقاتلونه .

صاح (فارس) في قلق :

— أسرع إذن يا رجل ، فلن يستطيع (فهد) مقاتلة

الجميع في آن واحد .

هتف (مهاب) :

— يا إلهي !.. لن نصل في الموعد المناسب أبداً .. انظر

رفع (فارس) عينيه في سرعة إلى نافذة حجرة (هاكل) ،

واتسعت عيناه في دهشة ، و ..

وخوف ..

هبّ الأمير (عبيدة) من فراشه ، استجابة لنداء حارسه

الخاص ، الذي اقتحم حجرته ، هاتفاً :

— مولاي .. مولاي .

وسأله (عبيدة) في توتر :

— ماذا هناك يا رجل ؟

أجابه الحارس في انفعال :

— هناك شيء ما يحدث ، في جناح القشتاليين يا مولاي .

عقد (عيدة) حاجيه في شدة ، وهو هتف :

— في جناح القشتاليين ؟ .. يا إلهي !

أسرع يرتدى ثيابه الملكية بنفسه ، ويمنطق بسيفه ،
والحارس يسأله :

— هل نوقف فرساننا يا مولاي ؟

هز (عيدة) رأسه نفيًا ، وقال :

— ويحك يا رجل .. إنهم ضيوفنا ، ونحن لاندرک ما يحدث

في حجرتهم بعد .. ربما يمارسون بعض الطقوس ..

أجابه الحارس في تردد :

— أظنهم يتقاتلون يا مولاي .

تجمد الأمير (عيدة) ، وهو هتف في ذهول :

— يتقاتلون ؟

ثم اندفع خارج حجرته ، هاتفا :

— فلنسرع إذن ، فلست أحب أن يقال إن الأمير

(عيدة) لم ينجح في حماية ضيوفه .

وانعقد حاجباه ، وهو يستطرد :

— حتى ولو كانوا من القشتاليين .

تراجع (فهد) في خفة ، وهو يصدّ ضربات سيوف
القشتاليين بمنجره ، على نحو جعله بالنسبة إليهم أشبه بشيطان
مخيف مرید ، وإن لم يمنع سيوفهم من أن تبلغ صدره القوي ،
وساقه ، فتزف منهما الدماء ..

وهتف (هاكل) :

— اقلوه .. لا تسمحوا له بهزيمتكم مرة أخرى .

صاح (أحدهم) ، وهو يذل قصارى جهده عبثًا ، في

محاولة للنيل من (فهد) :

— من السهل أن تقول هذا ؛ فلست تقاتل ذلك الشيطان

مثلنا .

لم يكذب عبارته ، حتى وثب (فهد) بظهره إلى الخلف ،

ووقف على حافة النافذة الرفيعة ، فصاح (هاكل) :

— هيا يا رجال .. انقضوا عليه انقضاضة رجل واحد .

تراجع الجميع بسيوفهم ، ثم انقضوا على (فهد) انقضاضة

واحدة مشتركة ..

ولكن سيوفهم لم تبلغ (فهد) ..

لقد وثب إلى الخلف ، في نفس اللحظة التي بدأوا فيها

انقضاضتهم عليه ..

وهتف (فارس) من موقعه :

— (فهد) .. يا إلهي !

واتسعت عينا (مهاب) في ذعر ، دون أن ينبس بينت شفة ، ولكن (فهد) هبط من ارتفاع طابقين من طوابق القصر على قدميه ، وانشت ركبته في مرونة ، يمتص جسده صدمة السقوط ، ثم انفرد جسده دفعة واحدة ، وانطلق يعدو كجواد جامح ، على الرغم من جراحه العديدة ، ولم يلبث أن اختفى في ساحة القصر ، فهتف (فارس) :

— يا إلهي !.. ياله من عملاق حقيقي !!

غمغم (مهاب) في ارتياح :

— حمدا لله أنه كذلك .

أوما (فارس) برأسه موافقا ، وقال :

— ولكن ما حدث يغير الكثير من الأمور .

سأله (مهاب) :

— أتقصد بالنسبة للهجوم ؟

أجابه (فارس) :

— بالطبع ، فلقد كانت خطتنا كلها تعتمد على عامل المفاجأة ، ولكن من الواضح الآن أن القشتاليين في قمة يقظتهم واستعدادهم ، وتحفزهم ، ومن الخطأ مقاتلتهم في مثل هذا الموقف .

سأله (مهاب) :

— متى نهاجمهم إذن ؟

أشار (فارس) إلى نافذة (هاكل) ، وقال :

— قبل شروق الشمس مباشرة .

وعاد يلتفت إلى (مهاب) ، مستطرذا في حزم :

— عندما يفقدون حماية الأمير عبيدة ، ويعودون أعداء ..

مجرد أعداء ..

شعر القشتاليون بالحنق والغضب ، عندما أفلت منهم

(فهد) ، وصاح أحدهم في غضب ، وهو يلوح بسيفه في

الهواء :

— لقد هرب ذلك الجبان .

أجابه (هاكل) في انفعال :

— لست أظن باستطاعتنا وصف ذلك الليث بالجبان ..

إنني لم أر في حياتي كلها ، شخصا يفوقه قوة وبسالة ، وهو

يواجهكم جميعا بمنجبر واحد .

قال فارس ثان في الحدة :

— ولكننا هزمناه .

هتف به (هاكل) :

— بعد أن جندل اثنين منكم أيها الأبطال .

قال فارس ثالث في عناد :

— فليكن .. المهم أننا قد هزمناه .

ارتفع صوت صارم ، عند مدخل الحجرة ، يقول :

— من هو هذا الذي هزمتوه أيها القشتاليون ؟

التفت الفرسان الخمسة و (هاكل) إلى مدخل الحجرة ،

حيث يقف الأمير (عبيدة) معقود الحاجبين في غضب ، وإلى

جواره حارسه الخاص ، وهتف (هاكل) ، وهو يندفع نحوه :

— النجدة يا أمير الأمراء .. القوث .. لقد حاولوا قتل في

قصرك ، وتحت لوائك .

سأله (عبيدة) في صرامة :

— من الذين حاولوا قتلك ؟

أجابه وهو يلوح بذراعيه في هلع مفتعل :

— فارس أبيض يا مولاي .. يرتدى ، خوذة فضية ،

وحرملة خضراء ، ونطاقاً من الـ ..

— قاطعه (عبيدة) في دهشة :

— كأنني بك تتحدث عن شبح من الماضي ، لا عن شخص

حي في حاضرنا .

هتف (هاكل) :

— أعلم من تقصد يا مولاي الأمير .. إن هذا الذي هاجمنا

هو ابنه .. لقد عرفته فور رؤيته .

صاح (عبيدة) :

— ابنه؟! .. أتعني أن الصغير قد نجا ؟

أجابه (هاكل) :

— نعم يا مولاي .. لقد نجا .. أنقذه الوزير ، وهرب به

إلى (غرناطة) ، مع قائد الفرسان ، و ..

قاطعه (عبيدة) في حدة :

— وكيف علمت هذا يا رسول (قشتالة) ؟

توقف (هاكل) ، وهو يقول في قلق :

— ماذا تعني يا مولاي ؟

قال (عبيدة) في عنف :

— أعني أنه من المستحيل أن تكون كل هذه المعلومات قد

وردت إلى ذهنك بغتة ، مجرد رؤيتك شاباً يرتدى ذلك الزي

الذي تصفه ، بل من المؤكد أنك تحفظ كل هذا عن ظهر قلب .

ازدرد (هاكل) لعابه ، وقال :

— أبداً يا مولاي .. إنها مجرد ..

قاطعه (عبيدة) في صرامة :

قفزت قبضات الفرسان الخمسة إلى سيوفهم ، فور سماعهم
الصرخة الغاضبة ، ولكن (هاكل) أشار إليهم بالتزام الهدوء ،
وهو يسأل الأمير :

— ماذا تقصد باتهامك هذا يا مولاي ؟

أجابه (عبيدة) في غضب :

— أقصد أنك كاذب حقير يا رسول (قشتالة) ، فلقد
أتيت مع حارسي الخاص ، عبر المدخل الوحيد للمر ، الذى
يقود إلى هنا ، ولم يشاهد أحدا فارسا من أى لون .
وفجأة هتف الحارس الخاص للأمير ، وهو يستل سيفه :

— احترس يا مولاي .

التفت الأمير فى سرعة ، ورأى (فرانثيسكو) والفارس
الأخير ، ينقضان على حارسه ، الذى التحم معهما فى مبارزة
عنيفة ، فى حين هتف (هاكل) :

— أوقفوا الأمير .

استل الفرسان الخمسة سيوفهم بدورهم ، وأحاطوا
بالأمير ، فى نفس اللحظة التى غاص فيها سيف (فرانثيسكو)
فى قلب حارسه الخاص ، فقال الأمير فى غضب :

— أتدركون ما تفعلونه أيها القشتاليون ؟

أجابه (هاكل) بابتسامة ساخرة :

— ثم إنه هناك فجوة عجيبة فى زوايتك .
بدأ الفرسان الخمسة يتبادلون نظرات قلقة حذرة ، فى حين
سأل (هاكل) الأمير (عبيدة) فى توتر :

— أية فجوة يا مولاي ؟

أشار الأمير إلى النافذة ، قائلاً بنفس الصرامة :

— شهود العيان يا رسول (قشتالة) .

عقد (هاكل) حاجبيه فى شدة ، وهو يرذد فى حذر :

— شهود العيان !؟

أجابه الأمير (عبيدة) فى عنف :

— نعم يا مندوب الشر .. لقد شاهد عدد من رجالى
ما حدث عند نافذتك ، وشهدوا جميعهم أنكم كنتم تقاتلون
عملاقاً زنجياً ، حاصرتوه عند النافذة ، فقفز منها لينقذ حياته .
بدأ القلق على وجوه الفرسان الخمسة ، ولكن (هاكل)
قال فى هدوء :

— لقد كانا رجلين ، قفز أحدهما ، وهو الزنجى ، من
النافذة ، أما الثانى ، فقد قرع المر ، وهو الفارس الأبيض ،
الذى وصفته لك يا مولاي .

صاح (عبيدة) فجأة :

— كاذب .

— نعم يا أمير العرب .. إننا نعتقلك .

مطَّ الأمير شفتيه في ازدراء واحتقار ، وقال :

— يالكم من خونة أنذال !! سيسحقكم رجالي سحقًا .

هزَّ (هاكل) رأسه نفيًا في سخريه وشماتة ، وهو يقول :

— لا يا أمير العرب .. لن يجرؤ فارس واحد من فرسانك

على اعتراضنا ، مادمت أسيرنا .. إننا سنفادر معك هذا

القصر ، وسنعود بك إلى (قرطبة) ، وهناك سيقرر ملكنا

العظيم (فرناندو) مايراه بشأنك .

قال الأمير في غضب :

— أيها الأوغاد .

فهقه (هاكل) ضاحكًا ، وقال :

— بل قل : أيها المنتصرون .

وأشار إلى رجاله ، مستطرذا :

— استعدوا يا رجال .. سنفادر القصر مع الأمير .

سأله (فرانثيسكو) في قلق :

— أنت واثق من أن أحدًا منهم لن يهاجمنا ؟

أجابه (هاكل) :

— تمام الثقة .. إنهم يحترمون أميرهم كثيرًا ، ولن يجرؤ

أحدهم على إصابته بسوء .

قال (فرانثيسكو) في تردد :

— أرى أنه من الأفضل أن نستعد لقتال عفيف ، بدلًا من

أن ..

ضرب (هاكل) حافة سريره بقبضته ، وهو يقول في

حدة :

— قلت لك لن يهاجمنا أحد منهم .

واندفع نحو النافذة ، هاتفاً :

— وما هوذا الدليل .

أطل برأسه من النافذة ، وهتف :

— أيها الحراس .. يا أهل القصر .. لقد أسرنا أميركم .

هبَّ (فارس) من مخبئه ، هاتفاً في دهشة :

— أسروا الأمير !؟

وهبَّ (مهاب) خلفه ، يهتف بدوره :

— ياللاؤغاد !

أما في ساحة القصر ، فقد ساد هدوء عجيب ، أدهش

(هاكل) نفسه ، قبل أن يبرز فرسان القصر من عدة مخارج ،

وكل منهم يحمل شعلة مضيئة ، ويتطلَّع في دهشة إلى النافذة ،

التي يتطلَّع منها (هاكل) ، الذي هتف مرة أخرى :

— قلت لكم إنني أسرت أميركم .



لم يكد الأمير يرز في النافذة، حتى سرت مهمة غاضبة بين فرسانه ..

لم ينس أحدهم بينت شفة ، في حين قال (مهاب) في
انفعال :

— إنها أول مرقة يحدث فيها هذا .

أجابه (فارس) ، وهو يتابع الموقف في اهتمام :

— سمعت الشيخ يقول ذات مرة : « امنح كل إخلاصك

للسديق ، ولا تثق أبداً في عدو »

لم يكن فرسان القصر قد أبدوا أى رد فعل بعد ، حتى أن

(هاكل) جذب الأمير إلى النافذة في عنف ، وهو يقول :

— هيا .. تحدث إلى رجالك .

لم يكد الأمير يرز في النافذة ، حتى سرت مهمة غاضبة بين

فرسانه ، واستلوا سيوفهم في حدة ، وهتف الأمير :

— إننى أرفع حمايتي عن القشتالين .

فجرت عبارته حماس فرسانه ، فراحوا يلوحون بسيوفهم ،

ويطلقون صيحات غاضبة ، فأزاح (هاكل) الأمير عن

النافذة ، وقال في انفعال غاضب صارم :

— اسمعوني كلكم .. سنقتل أميركم شر قتلة ، ودون أدنى

تردد ، لو لم يتم تنفيذ أوامرنا بالكامل .

سرت نفس المهمة الغاضبة ، في حين تابع هو :

— سنخرج جميعاً من هنا ، بكل أسلحتنا وجيادنا ،

وسنحمل معنا أميركم ، حتى نبلغ منطقة آمنه ، فتركه ونعبر الحدود إلى (قرطبة) .

ارتفع صوت غاضب من بين الفرسان ، يقول :

— وما الذى يجعلنا نثق بقولك ؟

أتاه جواب (هاكل) صارمًا :

— ألدريك بديل آخر ؟

لم يحجر أحد الفرسان جوابًا ، ثم قال أعلاهم رتبة فى غيظ :

— ومتى ترحلون ؟

أتاه صوت (هاكل) مفعمًا بالظفر والنصر ، وهو يقول :

— الآن .

التفت (فارس) إلى (مهاب) ، وقال :

— إننا لن نسمح لهم بالفوز طبعًا .. أليس كذلك ؟

قال (مهاب) فى حسم :

— هل تسألنى ؟

قال (فارس) :

— ألدريك خطة محدودة ؟

أجابه (مهاب) :

— ليس بعد ، ولكن من المؤكد أننا لن نواجههم قبل خروجهم

من هنا ، حتى يشعروا بالأمان ، وهم فى طريقهم إلى قرطبة .

خيّل إليه أن (فارس) لم يسمعه ، فسأله فى حدة :

— هل تستمع إلتى ؟

التفت إليه (فارس) مبتسمًا ، وهو يقول :

— معذرة يا صديقى (مهاب) ، ولكن أظننى قد وجدت

مفتاح الخطة .

سأله فى دهشة :

— وما هو ؟

أشار (فارس) إلى نقطة بعيدة ، وقال وهو يتسم :

— بل قل : من هو ؟

تطلّع (مهاب) إلى حيث يشير (فارس) ، وتهلّلت

أساريره ، وهو يقول :

— لقد فهمت .

ووافق فى أعماقه على خطة (فارس) .

أطلقت الأميرة (جميلة) ، من أعماق صدرها ، تنبؤة حارة ، وهي تتطلع من نافذة حجرتها إلى القمر ، الذي يتوسط السماء ، كقرص من الفضة اللامعة ، تحيط به النجوم كقطع من الماس ، وشرد بصرها بعيداً لحظات ، حتى أنها انتفضت في عنف ، عندما شعرت بيد توضع على كتفها ، والتفتت إلى صاحبة اليد هاتفة :

— لقد أفرغتني يا (فاطمة) .

ابتسمت وصيقتها في حنان ، وغمغمت :

— عفواً يا مولاتي .. لم أكن أعلم أنك شاردة .

تهدأت (جميلة) مرة أخرى ، وقالت :

— آه لو تعلمين فيم أفكرُ يا (فاطمة) .

قالت (فاطمة) مبتسمة :

— إنني أعلم يا مولاتي ما الذي يقلقك ، ويسؤرق

مضجك .

ثم أردفت في أسف :

— ولكنني أجهل ما الذي يؤرق مضجع مولاي الأمير

التفتت إليها (جميلة) ، وهي تقول في جزع :

— أوالدي مصاب بالأرق مثلث ؟

أومأت (فاطمة) برأسها إيجاباً ، وقالت :

— نعم يا بنتي .. إن المشاعل لم تنطفئ في حجرته ، حتى

هذه اللحظة .

هتفت (جميلة) :

— يا للمسكين !

هرعت بسرعة إلى حجرة والدها ، وهزت (فاطمة)

رأسها في حنان ، قائلة :

— يا لحنانك يا مولاتي !

أما (جميلة) ، فقد بلغت حجرة والدها ، وطرقت بابها في

رقة ، على الرغم من القلق الذي يملأ نفسها ، وسمعت صوت

والدها يقول :

— ادخل يا من تطرق الباب .

دفعت الباب في هدوء ، وانسابت إلى الحجرة كنسيم

معطر ، وشعر بها والدها ، فالتفت إليها ، وقال في حزن

واضح :

— (جميلة) .. ما الذي يوقظك حتى هذه اللحظة

يا بنتي ؟

استكانت إلى جواره كعصفور رقيق ، وهي تقول :

— أتيت لأطرح عليك السؤال نفسه يا أبا
 هز الأمير رأسه ، وأطلق تنهيدة عميقة ، وهو يقول :
 — مشاكل (الأندلس) لانتى يا بنتى .
 قالت فى حنان :
 — ولكنك لم تنكسر أمامها أبداً يا أبى .
 قال وهو يداعب شعرها الناعم بأصابعه :
 — أتعيشم ألا أفعل أبداً .
 سأله :
 — ما الذى يؤرقك الليلة إذن ؟
 أجابها ، وهو يشرّد ببصره بعيداً :
 — ربما كانت مشاكل اليوم عديدة يا بنتى ، فالقشتاليون
 يحشدون جيشهم على الحدود ، وأمراء (غرناطة) يختلفون ،
 و ..
 أفلت فضولها فجأة ، وهى تسأله :
 — لماذا استدعيت الشيخ إذن ؟
 لم تكذب تنطق السؤال ، حتى عضت شفتيها ندماً ، وخاصة
 عندما التفت إليها والدها فى دهشة ، وسألها فى حيرة :
 — وكيف علمت أننى قد فعلت ؟
 خفضت عينيها أرضاً ، وارتجفت شفتاها ، وهى تقول :

— لقد رأيت من نافذة غرفتى ، يذهب إلى جناح الحكم .
 أراحها أن اكتفى بهذا الجواب ، وهز رأسه ، قائلاً :
 — هذا أحد مشاكل الحكم يا بنتى ، فهناك من الأمور
 ما يستوجب لجونى إلى ذلك الشيخ ، وإلى تلميذه (فارس) .
 لم تغب عن عينه اختلاجة جفنيها ، ولاتلك الأنفاس
 اللاهثة ، التى نبتت على صدرها ، عندما نطق اسم (فارس) ،
 ولكنه تظاهر بأنه لم يتبه إلى كل هذا ، وهو يواصل :
 — وأنا أثق بـ (فارس) هذا كثيراً فى الواقع .
 كاد يتسم ، عندما غمغمت ، وهى تحاول مداراة
 وجهها ، الذى تخضب بحمرة الخجل :
 — لست أذكره .
 ولكنه نجح فى إخفاء ابتسامته ، وهو يقول :
 — كيف لا تذكرينه ؟ .. إنه ذلك الفارس الوسيم
 المهور ، الذى أنقذك ذات يوم ، من حصن قرطبة .
 هفت مصطنعة :
 — آه .. لقد تذكرته .
 اختلس النظر إليها ، وهو يحاول التطلع عبر النافذة ،
 لإخفاء ابتسامته مرة أخرى ، قائلاً :
 — من الجيد أنك تذكرينه يا بنتى الحبيبة ، فهو شاب

رائع ، ويتمى إلى واحد من أفرع سلالتنا ، بل إلى أفضل فروع
هذه السلالة ، ومحفوظ هو من يزوجه ابنته .

تهللت أسارىها ، وهى تهتف فى سعادة :

— حقاً ؟!

ثم تضرّج وجهها بحمرة خجل شديدة ، وأشاحت بوجهها
هائفة :

— ولكن مالنا و (فارس) هذا الآن ؟

وراح قلبها يرقص بين ضلوعها فى شدة ، وعجزت عن
إخفاء سعادتها الجمّة هذه المرة ، فأسرعت نحو باب حجرة
والدها ، متممة :

— فلتنعم بنوم هانى يا أبى .

ترك الأمير لابتسامته العنان ، وهو يتابعها ببصره ، قائلاً :

— وأنت أيضاً يا بنتى .

ولكنها لم تكذ تغلق الباب خلفها ، حتى تسأل شيئاً من
الحزن إلى ابتسامته ، وهو يتابع فى صوت شديد الخفوت :

— لقد فهمت يا ابنتى .. لقد فهمت .

ثم عادت عيناه تشردان مع القمر والنجوم ، مستطرّداً :

— المهم أن يعود سالمًا ..

نعم أيها الأمير ..

المهم أن يعود ..

سالمًا ..

وقف فرسان الأمير (عبيدة) يعضون شفاهم غيظًا

وندمًا ، عندما استقلّ (هاكل) وفرسان (قشتالة) خيولهم ،

ووضعوا سيوفهم على رقبة الأمير ، وهم يتجهون نحو باب

القصر المفتوح ، وغمغم الأمير فى سخط :

— هذا أحقر عمل رأيت فى حياتى كلها .

قال (هاكل) فى شماتة :

— ولكنه يربح .. أليس كذلك ؟

قال الأمير فى غضب :

— لو أننى أعلم هذا ، لما منحتكم حمايتى قط .

منّ (هاكل) عنقه بطرف سيفه ، قائلاً فى غلظة :

— لم يعد هناك مجال للندم .

أجابه الأمير ، وهم يعبرون بؤابة القصر :

— هذا ينطبق عليك أيضاً يا رسول الشر ، فلو أننى نجوت

من أسر كم هذا ، فسيجتزّ سيفى عنقك حتمًا .

ابتسم (هاكل) فى سخرية ، وقال :

— فليكن .. افعل ما يحلو لك بي أيها العربى ، لو نجوت منا .

وفي نفس اللحظة كان قائد فرسان القصر يقول :
— هل ستركهم يأخذون أميرنا هكذا .. أمام أعيننا ؟

أجابه حكيم القصر في مرارة :

— وما الذي يمكننا فعله ؟

هتف قائد الفرسان في حنق :

— كم أتمنى لو أمسك بتلابيب ذلك القشتالي ، وأمزقه

إربًا .

هز الحكيم رأسه في أسف ، وقال :

— المهم أن نستعيد أميرنا حيًا ، ولنفعل بعدها ما يحلو

لك .

قال قائد الفرسان :

— فليكن .. سأنتظر حتى يتعدوا قليلاً ، ثم آخذ ثلثه من

أقوى رجالى ، و ..

قاطعده صوت (هاكل) ، وهو يهتف :

— قبل أن نتعد عن هنا ، أحبُّ أن أحذركم من محاولة

اللحاق بنا ، فلو شعرنا بأي نوع من أنواع المطاردة ، فسنقتل

أميركم بلا تردد .

عضَّ قائد الفرسان شفثيه ، قائلاً في غيظ :

— يا للحقارة !

وهتف (هاكل) برجاله :

— هيا .. إلى (قرطبة) .

انطلقت القافلة تعدو ، وتختفى وسط الظلام ، فهتف قائد

الفرسان :

— لم يحدث هذا من قبل قط .. إننا نشاهد هزيمتنا بأعيننا ،

دون أن نجروء على القتال .

وفجأة ارتفع من خلفه سهيل جواد ، جعله يلتفت إلى

مصدره في دهشة ، فرأى زنجياً قوياً ، عارى الصدر ، يمتطى

جوادًا في لون الليل البهيم ، وينطلق في حزم نحو بوابة القصر ،

مما جعله يهتف به :

— من أنت ؟ .. وإلى أين تذهب ؟

لم يتوقف (فهد) ليجيب سؤالي قائد الفرسان ، وإنما مرق

إلى جواره كليث أسود رهيب ، واختفى بدوره وسط الظلام ،

فهتف القائد :

— من هذا بالله عليكم ؟

أجابه أحد فرسانه ، وصوته يحمل رنة ارتياح واضحة :

— إنه ذلك العملاق ، الذى قاتل القشتاليين في جناحهم .

هتف القائد :

— وإلى أين يذهب ؟ .. ألم يسمع تحذير ذلك القشتالي ؟

رَبَّتْ حَكِيمُ الْقَصْرِ عَلَى كَتْفِهِ ، وَقَالَ فِي صَوْتِ خَافَتِ
عَمِيقٍ :

— اطمئن يا ولدي .. قلبي يحدثني أن ذلك الزنجي يحمل
في لونه الداكن قوة الدنيا كلها .. اطمئن يا ولدي .. اطمئن ..
ولكن قائد الفرسان لم يكن يشعر بالاطمئنان على أميره
وسيده ..

لم يكن يشعر بهذا قط ..

هتف (فرانشيسكو) ، وهو يعدو بجواده ، على رأس
القافلة ، التي تنطلق عائدة إلى (قرطبة) :

— ولكن كيف يمكن تقييم عملنا يا صاحب الفخامة ؟ ..
هل نجحنا أم فشلنا ؟

أجابته (هاكل) :

— من المؤكد أننا لم نحقق النجاح المنشود
يا (فرانشيسكو) ، ولكننا لم نفشل في مهمتنا أيضا .

قال (فرانشيسكو) :

— هل تعتقد هذا ؟

هتف به (هاكل) :

— بالتأكيد .. لقد أسرنا واحداً من أكبر أمراء العرب ،

وحصلنا على رسم تخطيطي واضح لقصره ، واحتفظنا في الوقت
ذاته بالسيف الذهبي .. ألا تعتبر هذا نصراً ؟

لم يكن هذا القدر ليقنع (فرانشيسكو) بتحقيق النصر ،
وعلى الرغم من هذا فقد تمم :
— بلى .. إنه يعتبر كذلك .

واصلوا انطلاقهم لحظات في صمت ، ثم هتف أحد
الفرسان فجأة :

— أنصتوا .

توقف الكل على الفور ، وانتظروا حتى انتهت جيادهم من
سهيل التوقف التقليدي ، ثم أرهفوا أسماعهم في اهتمام
وانتباه ..

وهنا بدا لهم الصوت واضحاً ..

وقع حوافر جواد يقترب في سرعة ..

وانعقد حاجبا (هاكل) في غضب ، وهو يقول :

— ويل لهؤلاء العرب ، لو كانوا قد أرسلوا أحدهم
خلفنا .

قال الأمير في غضب :

— سأشك في عروبتهم ، لو لم يفعلوا .

جذب (هاكل) سيفه ، ووضع على رقبة الأمير ، وهو



ابتسم (فرانثيسكو) لشكوك (هاكل)، وبرز من خلف الشجرة،
ورفع سيفه هاتفاً في وجه القادم: من أنت؟

يقول في حدة :

— فلتدع الله ألا يكون ذلك القادم أحد رجالك ، وإلا
فأقسم أن أفصل رأسك عن عنقك ، فور رؤيتي له .
ثم أشار إلى رجاله ، مستطرذاً :
— اخضروا .

اختفى الجميع خلف الأشجار ، وراحوا يستمعون في انتباه
إلى وقع حوافر الجواد ، الذي يقترب في سرعة ، حتى لاح
القادم على ضوء القمر ، فهتف (فرانثيسكو) :

— إنه زميلنا (ماريو) .. الذي أرسلناه إلى الأمير
(زياد) .. لا ريب أنه قد أدرك ما حدث ، فلحق بنا إلى هنا .
قال (هاكل) في صرامة :
— تأكد أولاً .

ابتسم (فرانثيسكو) لشكوك (هاكل) ، وبرز من
خلف الشجرة ، ورفع سيفه هاتفاً في وجه القادم :
— من أنت ؟

أوقف القادم جواده ، وقال في سرعة :
— أنا (ماريو) أيها القائد .

أعاد (فرانثيسكو) سيفه إلى غمده ، وهو يقول
لـ (هاكل) مبتسماً :

(ماريو) يندفع نحو جواد الأمير ، ويضربه بصفحة سيفه ،
هاتفًا :

— ابتعد أيها الجواد .

سهل جواد الأمير ، وانطلق مبتعدًا عن القافلة الصغيرة ،
وصاح (هاكل) :

— إنك لست (ماريو) .

وهنا نزع ذلك القادم الدرع القشتالي عن صدره ، فاتمعت
حلته البيضاء تحت ضوء القمر ، وهو يقول :

— من دواعي فخري أنني لست كذلك .

ثم رفع سيفه ، صائحًا :

— إلى القتال .

وارتفع في السهول سوط صليل السيوف .

* * *



١٢١

— ألم أقل لك ؟

ثم هتف بالفارس :

— هيا .. انضم إلى رفاقك .

ورفع (هاكل) سيفه عن رقبة الأمير ، وهو يقول :

— هذا أفضل .

والتفت إلى الأمير ، مستطرذا في سخرية :

— لست أحب أن أعود إلى مولاي (فرناندو) ، بأمر

عربي من قطعتين .

قال الأمير في غضب :

— من السهل أن تقول هذا أيها الحقير ، مادمت قد

جرّدتني من سيفي ، وقيدت معصمي خلف ظهري ، فأنت

أجبن من أن تواجهني كرجل .

أطلق (هاكل) ضحكة ساخرة ، وقال :

— لا تحاول أيها العربي .. لن ينجح هذا في استفزازي ،

ودفعني إلى مقاتلتك سيفًا بسيف .

أناه من خلفه صوت عربي ، يقول :

— هل ينجح هذا إذن ؟

التفت الجميع في دهشة إلى مصدر الصوت ، ورأوا زميلهم

١٢٠

١٠ - فرسان العرب ..

امتدت أصابع (غالا) الرقيقة ، تضيء شمعة كبيرة ، في جناح الملك (فرناندو) ، ثم التفتت إلى الملك ، الذي يتطلع إليها في شرود ، وانحنت أمامه ، قائلة :

— لماذا أصيب مولاي بالأرق الليلة ؟

مطّ شفتيه في توتر منحوظ ، وهو يقول :

— كنت أنتظر رسالة عاجلة .

رفعت حاجبيها الجميلتين في دهشة ، وهي تقول :

— بعد منتصف الليل ؟

لوح بكفه في حلق ، قائلاً :

— الحرب لا تعرف ليلاً أو نهاراً ..

تراجعت متمتمة :

— رسالة حرب هي إذن ؟

هبت من فراشه ، وهو يقول في عصبية :

— نعم .. هي كذلك .

واتجه إلى نافذة جناحه ، يتطلع إلى السماء في توتر ، وكأنه ينتظر شيئاً ما ، فلاذت (غالا) بالصمت ، حتى التفت إليها بغتة ، وقال في حلق :

— هل تؤمنين بإغراء المال يا (غالا) ؟

أجابته على الفور :

— بالطبع يا مولاي .

سألها في اهتمام :

— لماذا أجبت بالإيجاب بهذه السرعة ؟

ابتسمت وهي تقول :

— لأن الجواب لا يحتاج إلى تفكير طويل يا مولاي ،

فللمال سحر على كل القلوب والنفوس .

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

— ليس كلها .

قالت في هدوء :

— وهل هناك من يمكنه مقاومة إغراء المال ؟

أوما برأسه إيجاباً ، وهو يمطّ شفتيه في حلق ، ثم قال :

— نعم .. هناك من يمكنهم مقاومة إغراء المال ..

وزفر في عصبية ، قبل أن يتابع :

— لقد تصوّرت في لحظة أن للمال سحراً لا يمكن

مقاومته ، ولكنني الآن ، وبعد تفكير عميق ، على ضوء

القمر ، أرى أنني كنت مخطئاً .

سألته في خفوت :

لماذا يا مولاي ؟

أجابها ، وهو يعود للتطلع إلى السماء :

— لأن المال يمكن الحصول عليه من مصادر شتى ، وبريقه قد يخدع البعض ، أو يبدو كضوء باهت في عيون البعض الآخر .

تمتت في حيرة :

— عفوا يا مولاي .. لست أفهمك الليلة .

قال في حنق :

— لا داعي لأن تفهمي .

لاذت بالصمت ، بعد أن شعرت بتوتره ، في حين تطلع هو

إلى القمر ، وقال في عصبية :

— ما الإغراء الذي يصعب مقاومته ؟ .. ما هو ؟

صمت لحظات ، وهو يفرك كفيه في توتر ، ثم برقت عيناه

بغثة ، والتفت يحدق في وجه (غاللا) الفاتن لحظات ،

وهتف :

— بالطبع .. أنت هو ذلك الإغراء ، الذي تصعب

مقاومته يا عزيزتي (غاللا) .

هتفت (غاللا) في دهشة :

— أنا ؟!

أمسك كنفها في حماس ، وهو يقول :

— بالطبع يا (غاللا) .. يا إلهي !! .. كيف لم أنتبه إلى

ذلك ؟

بدأت تفهم فكرته ، فهتفت :

— مولاي !

سألها بكل حماسه :

— أخبريني يا (غاللا) .. أما زلت تتمنين الانتقام من

ذلك الفارس الأندلسي ، الذي قتل (رودريك) ؟

انعقد حاجباها ، وفقد وجهها عذوبته ، وهي تقول في

شراسة :

— إنني لم أتنازل عن هذا أبدا .

فهقه ضاحكا ، وهتف :

— رائع يا (غاللا) .. رائع .

انقضت (غاللا) ، عندما سمعت من خلفها صوت الملكة

(إيزابيلا) ، وهي تقول في غضب واضح :

— ماهو هذا الرائع يا جلالة الملك ؟

ارتجفت (غاللا) ، خوفا من مليكتها ، في حين لم يبد أدنى

اهتمام على وجه (فرناندو) ، وهو يقول :

— إنها فكرة رائعة ، قفزت إلى ذهني بغثة .

قالت في حدة :

— فكرة تختص بـ (غالا) ؟

لوح بكفه ، قائلاً :

— بالطبع .

انعقد حاجباها في غضب ، وهي تلتفت إلى (غالا) ،

وتفرغ فيها غضبها ، هاتفة :

— ماذا تفعلين هنا ؟

ارتبكت (غالا) ، وهي تقول :

— إننى .. لقد ..

قاطعها (فرناندو) في صرامة :

— أنا طلبت منها الحضور إلى هنا ، وليس عليها سوى

الطاعة .

تضاعف حنق (إيزابيلا) ، عندما انتزع (فرناندو) منها

فرصة الثورة على (غالا) ، فلوح بكفها في عصبية ، قائلة :

— عودى إلى حجرتك يا (غالا) .

أسرعت (غالا) تغادر الجناح الملكي ، دون أن تستأذن

الملك كما ينبغي ، وانتظرت (إيزابيلا) حتى سمعتها تغلق الباب

خلفها ، ثم قالت في غضب :

— لقد حذرتك أكثر من مرة من محاولتك إغواء وصيفتى .

قال في حزم شديد :

— كفى يا (إيزابيلا) .. لست مستعداً لمناقشة مثل هذه

الأمر التافهة الآن .

هتفت :

— هل تتظاهر بالعصية والغضب ، لسفادى ثورتى و ..

قاطعها في حدة :

— لقد فشلت خطة السيف الذهبى .

صدمتها عبارته ، فاتسعت عيناها في شدة ، ونسيت أمر

(غالا) ، وهي تهتف :

— فشلت ؟ .. كيف علمت ؟

أجابها في سخط :

— كان المفروض أن تصلنى رسالة منذ قليل ، لو أن الأمور

تسير على مايرام ، ولكنها لم تصل وهذا يعنى أن شيئاً ما قد أفسد

الخطة كلها .

غمغمت في قلق :

— ربما ارتبك الحمام الزاجل ، لعدم قدرته على الطيران

ليلاً ، أو ..

قاطعها :

— هذه الطيور كانت مدربة على الطيران في الظلام الدامس .

ولكن سيف (فارس) كان قد خفض عددهم بالفعل إلى ستة ، وما زال يقاتل السيوف الستة في قوة أدهشت الفرسان بالفعل ..

لقد كان صغير السن ، كما يبدو واضحًا ، وعلى الرغم من هذا كانت ضرباته قوية عنيفة ، تهوى على سيوفهم كالصواعق ، وترتفع عنها كالرياح .. وجواده أيضًا كان يتحرك في خفة وسرعة ، فيدور من فارس إلى آخر ، كما لو كان قد نما وترعرع في حومة قتال ، يتازلون فيها ليل نهار ..

وعلى الرغم من هذا ، كان من المستحيل أن ينجو (فارس) من هؤلاء الخصوم الأشداء ، وهو يقاتلهم وحده ، ولقد أدرك (فرانثيسكو) هذا ، فصاح بفرسانه :
— أحيطوا به ، وأغمدوا سيوفكم في جسده .
زلزل قلوبهم صوت صارم ، يهتف من خلفهم :
— محال أيها الأوغاد .

وقبل أن يلتفتوا إلى مصدر الصوت ، كان (مهاب) ينقض عليهم كالإعصار ، فيتزع سيفه روح أحدهم ، ثم يضرب سيف الثاني ..

وأصبح القتال يدور بين بطلينا ، وخمسة من أقوى فرسان (قشتالة) ..

وفي هذه الأثناء ، كان جواد الأمير ينطلق على غير هدى ، والأمير يحاول الحفاظ على توازنه فوقه ، وهو مقيد المعصمين

حاولت أن تجد تبريرًا آخر ، وهي تقول :

— ربما حدث تعديل في الخطة ، أو ..

لم يمهلهما هذه المرة أيضًا ، وهو يقاطعها في حزم :

— لقد فشلت الخطة .. خذينا من خبر مؤامرات قديم .

ثم التفت إليها ، مستطردًا :

— ولكن لدى خطة أخرى رائعة .

قالت في غضب :

— وهل تعتمد هذه الخطة الأخرى على (غالا) ؟

أجابها في برود :

— إنها تعتمد عليها تمامًا .

وعاد يتطلع إلى السماء ، مستطردًا :

— وعلى ذلك أيضًا .

وبرقت عيناه في دهاء ..

وشراسة ..

لم يكذ (فارس) يكشف عن شخصيته ، حتى انقض على

الفرسان السبعة ، وهوى بسيفه على سيوفهم في قوة ، مستغلًا

عامل المفاجأة ، فصاح (هاكل) :

— تكاتلوا عليه يا رجال .



وفجأة بلغه جواد أسود قاتم ، وأمتدت يدان قويتان ، فأمسكتا به ،
ومنعته من السقوط ، ثم أوقفناه على الأرض في رفق ..

خلف ظهره ، ويهتف به :
— مهلاً أيها الجواد .. مهلاً .. إننى سأسقط من فوقك ،
فيدق عنقى .. مهلاً ..

شعر بعجزه عن البقاء على متن الجواد ، وهو يتشبث
بقدميه فحسب ، ومال جسده ، وانزلق وهو يهتف :
— اللعنة !

وفجأة بلغه جواد أسود قاتم ، وأمتدت يدان قويتان ، فأمسكتا
به ، ومنعته من السقوط ، ثم أوقفناه على الأرض في رفق ..
والنفت الأمير إلى صاحب اليدين القويتين في دهشة ،
وبدت له ملامحه قائمة أكثر مما اعتاد ، على ضوء القمر ، فسأله
في حيرة :

— من أنت ؟ .. إنك أحد الخدم الجدد في قصرى .. أليس
كذلك ؟

لم يجبه (فهد) بحرف واحد ، وإنما رفع سيفه على نحو جعل
الأمير يهتف :

— ماذا ستفعل ؟

ولكن سيف (فهد) هوى على قيد معصمى الأمير
فحسب ، وحرزه بضربة واحدة ماهرة ، فهتف الأمير :
— رائع .. كيف فعلتها ؟

ومرة أخرى لم يحظ بجواب من (فهد) ، الذى انتزع من
سرج جواده سيفاً آخر ، ناوله إلى الأمير فى صمت ، فحدق
الأمير فى السيف بدهشة ، وهتف :

— رباه ! .. إنه سيفى .. كيف حصلت عليه ؟ .. لقد

١١ - الذهب ..

على الرغم من التفوق العددي للقشتاليين ، إلا أن سيوفهم لم تنجح في الوصول إلى (فارس) و (مهاب) أبداً ، فقد كان بطلانا يصدان هجمات سيوف الفرسان الخمسة في مهارة وبراعة ، وإن منعهما هذا من توجيه ضرباتهما بدورهما ..

وهتف (فرانشسكو) في غضب :

— ماذا أصابكم يا فرسان البلاط ؟ .. اضربوا بقوة أكثر

وأكثر ..

ولكن فجأة انطلقت صرخة (فهد) ، واندفع الزنجي إلى

ساحة القتال ..

وفي لحظة واحدة اخترق سيفه صدر أحد الفرسان ،

وتعادت كفة القتال ..

أربعة من القشتاليين ، في مواجهة ثلاثة من أقوى فرسان

العرب ..

وأدرك (فرانشسكو) على الفور أن اللعبة كلها قد

فشلت ، وأن الفوز لن يكون من نصيبه ونصيب رجاله أبداً ..

ولم يضع قائد الفرسان القشتالي لحظة واحدة ..

لقد جذب عنان جواده ، وانطلق هارباً ، وهو يحمل معه

تركته في حجرتي ، قبل أن أذهب للقاء هؤلاء الـ ..
بتر عبارته ، عندما رأى (فهد) يشير إلى نقطة ما ، فقطب
جبينه ، وهو يسأله :
— ماذا هناك ؟

لم يكن يحتاج بعدها إلى أن يرهف سمعه ، فقد بداله وقع حوافر الجواد ،
الذي يقترب في سرعة واضحة ، مما جعله يتطلع إلى مصدره ، قائلاً :
— أعدو هو أم صديق ؟

جذب (فهد) عنان جواده ، دون أن ينبس ببنت شفة ،
وانطلق مبتعداً في اتجاه آخر ، فغمغم الأمير :

— عجيب أمر هذا الزنجي .. إنه أبكم أصم كما أذكر ..
ولكن كيف يظهر هكذا ؟ وكيف ..

قبل أن يتم عبارته ، برز أمامه الجواد القادم وراكبه ..
وبرقت عينا الأمير ، وهو يقول :

— إذن فهو أنت .

عقد (هاكل) حاجبيه في شدة ، وهو يقول :

— ألم تبعد كثيراً ؟ .. هذا من حسن حظك ، ومن سوء
حظي أيها العربي .

رفع الأمير سيفه في وجه (هاكل) ، وهو يقول في حزم :

— أو العكس أيها القشتالي .

استل (هاكل) سيفه في حركة سريعة ، وصاح :

— سنرى أيها العربي .. سنرى ..

وانقض بسيفه وجواده على الأمير ..

وتقارعت السيوف !

السيف الذهبي .

وهتف (مهاب) :

— احترس يا (فارس) .. إنه يفرّ بالسيف الذهبي .

كان هذا الهتاف كافياً ، لينتزع (فارس) سيفه من حومة

القتال ، ويجذب معرفة جواده (رفيق) ، وهو يهتف به :

— خلفه يا (رفيق) ..

وانقسم ميدان القتال إلى ثلاثة ساحات ..

في الساحة الأولى كان (فهد) و (مهاب) يقاتلان آخر

ثلاثة من فرسان البلاط الملكي القشتالي ..

وفي الساحة الثانية يتقارع سيفا الأمير (عبيدة) و

(هاكل) ..

وفي الثالثة يطارد (فارس) (فرانيسكو) ؛ لاستعادة

السيف الذهبي ..

وكل هذا في لحظة واحدة ..

لقد أطاح سيف (فهد) بفارس قشتالي آخر ، وأصبح

القتال يدور بين عربيين وقشتاليين ، وهنا جاء دور الكفاءة ،

فلقد انفرد كل من (فهد) و (مهاب) بخصمه ، وراح

(فهد) يهوى على سيف الفارس القشتالي بضربات عنيفة ،

والفارس يتراجع أمامه في توتر ، باحثاً عن مجال للهروب أو

الفرار ، ثم لاحت له فرصة لطمع (فهد) في مقتل ، فاندفع

بسيفه نحو قلب هذا الأخير ، وهو يصرخ :

— مت أيها الزنجي .. مت ..

ولكن فجأة ارتفع سيف (فهد) نحو صدره ، وشهق

القشتالي ، واخترق السيف صدره بلا تردد ..

وجحظت عينا القشتالي ، ثم هوى عن جواده جثة

هامدة ..

وفي حزم ، مسح (فهد) الدماء عن سيفه ، ثم دفعه في

غمده بقوة ، والتفت يتطلع إلى (مهاب) ، الذي لم يكن قد

انتهى من قتاله بعد ..

وكان (مهاب) يقاتل خصمه في قوة مدهشة ، ويجبره على

التراجع أمامه في عنف ، ولكن الفارس القشتالي استجمع

قواه ، وكرّ على (مهاب) كرة قوية ، كاد ينتزع بها سيف

(مهاب) ، وعلى الرغم من هذا ، فإن (فهد) لم يتحرك من

مكانه قيد أنملة ..

كان يترك لـ (مهاب) القتال كله ، دون تدخل ..

إنه يعرف (مهاب) ..

ويثق به ..

وكانت ثقته في موضعها ..

لقد تفادى (مهاب) ، أستاذ الفروسية والسلاح ،
انقضاة القشتالي ، ثم هوى على سيفه بضربات متلاحقة
عنيفة ، أجبرته على التراجع ، ودفع سيفه نحو مقبض سيف
القشتالي ، ثم أداره حوله في سرعة مربكة ، وانتزعه من يد
القشتالي بحركة بارعة قوية ، وأطاح به بعيدا ، فشحب وجه
الفارس ، وحذق في سيف (مهاب) في رعب ، وهو يتوقع أن
يخترق صدره ، بين لحظة وأخرى ، ولكن (مهاب) أعاد
سيفه إلى غمده ، وقال في صرامة :
— اذهب .

اتسعت عينا القشتالي في دهشة ، ولم يصدق أنه قد نجى ، إلا
أنه لم يشأ إضاعة الفرصة ، فجذب عنان جواده ، وفر هاربًا ،
لا يلوى على شيء ..

وهنا فقد تحرك (فهد) نحو (مهاب) وربت على ظهره في
حرارة ، فالتفت إليه (مهاب) وهو يلهث ، وقال :
— أشكرك يا صديقي ، ولكنني أظن أن هزيمة ذلك
القشتالي قد استغرقت مني وقتا أطول مما ينبغي .

غمغم (فهد) بصوته العميق :

— كنت رائعا .

تهب (مهاب) ، وقال :

— ليس كالأيام الخوالي يا صديقي .. لا بد أن نعرف بمرور
الزمن .. إنني أتخطى مرحلة الشباب الآن .
وتطلع ببصره إلى حيث اختفى (فارس) خلف
(فرانيسكو) ، وأضاف :

— ولم أعد مثله .

ثم جذب عنان جواده ، مستطرذا :

— هيا يا (فهد) .. دعنا نلحق به .

وفي نفس اللحظة ، كان الأمير (عبيدة) يراوغ
(هاكل) ، ويصد ضربات سيفه في براعة ، وهو يجرى على
قدميه ، أمام جواد هذا الأخير وسيفه ..
ثم لاحت لحظة مناسبة ، انقض فيها الأمير على (هاكل) ،
ودفعه من قدمه ، هاتفا :

— اهبط من عليائك يارجل .

اختل توازن (هاكل) ، وسقط عن جواده ، وارتطم
ظهره بالأرض في قوة ، وتوقع أن يستغل الأمير سقوطه ،
فينقض بسيفه على صدره ..

ولكن الأمير لم يفعل ..

لقد وقف صامتا ، شامخا غاضبا ، ينتظر حتى استعاد
(هاكل) توازنه ، وهب واقفا على قدميه ، يسأله في دهشة :

— لماذا لم تقتلني ، عندما لاحت لك الفرصة ؟

أجابه الأمير ، وهو يرفع سيفه في وجهه :

— لقد كنت ساقطاً ، ونحن العرب لانضرب ساقطاً أو

أعزل .

ضاعت عينا (هاكل) ، وتألقتا بيريق ساخر ، وهو

يقول :

— أنعم العرب !؟ .. يا للسخافة !.. متدفع ثمن شهامتكم

هذه غالباً أيها الأمير ..

وقفز نحوه صارخاً :

— استعد للموت .

وهوى سيفه على صدر الأمير ..

كان (فرانشكو) يحث جواده على الانطلاق بأقصى

سرعة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد سمع وقع حوافر جواد

(فارس) يقترب منه كثيراً ، فصاح بجواده في حنق :

— انطلق أيها اللعين .. انطلق .

ولكن جواده كان منهكاً مرهقاً ، في حين كان (رفيق) قوياً

عنيذاً ، لم يلبث أن أصبح ينطلق بمحاذاة جواد

(فرانشكو) ، الذي أصابه الذعر ، عندما رأى (فارس)

ينطلق إلى جواره ، فرفع سيفه ، وحاول أن يضرب به

(فارس) ، وهو يصرخ :

— ابتعد أيها العربي .. ابتعد .

ولكن (فارس) انحنى في مرونة مدهشة ، متجاوزاً ضربة

السيف ، ثم قفز من جواده ، وتعلق بوسط (فرانشكو) ،

ودفعه معه إلى الأرض ، ليرتطمأ بها في عنف ، وهب واقفاً على

قدميه ، وهو يقول في صراخه :

— استسلم أيها القشتالي .. لقد خسرت المعركة .

نهض (فرانشكو) ممسكاً بسيفه ، وهو يقول في

عصية :

— لم نخسرها تماماً ، كما تظن أيها العربي .. لقد نقلنا رسم

القصر إلى جيشنا ، ولن يكون اقتحامه عسيراً ، عندما تحين

اللحظة المناسبة .

ابتسم (فارس) ، وأخرج من جيبه رقعة مطوية من الجلد

الرقيق ، فردها أمام (فرانشكو) ، قائلاً :

— أتقصد هذه ؟

حدق (فرانشكو) في الرقعة بذهول ، وهتف :

— كيف حصلت عليها ؟

أجابه (فارس) في بساطة :

— بسهم واحد يا رجل .. ولقد كان طعم الحمامة للذيذا ،
عندما طهوناها مع بعض الأرز .

احتقن وجه (فرانشسكو) في غضب ، وصاح :

— أيها العربي الحقير .

وانقضّ بسيفه على (فارس) ، الذي استقبله على صفحة

سيفه ، وهو يقول في صرامة :

— العربي ليس حقيرًا أيها القشتالي .

ثم دفع السيف ، وهوى عليه بضربة عنيفة ، مستطرذا :

— فهو لا يخون من استضافه .

وأعقبها بأخرى أكثر عنفًا ، متابعًا :

— ولا يقتل من أولاه ظهره .

صرخ (فرانشيسكو) ، وهو يستعيد مبادرة الهجوم :

— كل هذا لا قيمة له أيها العربي .

ومال جانبًا ، وهو ينقضّ على قلب (فارس) بسيفه ،

مستطرذا :

— المهم من ينتصر في النهاية .

ولكن (فارس) تفادى سيفه في مهارة مذهشة ، وانحنى في

رشاقة ، وهو يضرب بسيفه في حزم وقوة ..

وشهق القشتالي في ألم ، واصطبغت عيناه بلون الدم ، ثم

انتفض ، عندما انتزع (فارس) سيفه من قلبه ، وهوى على

وجهه عند قدمي (فارس) ، الذي قال في هدوء :

— صدقت أيها القشتالي .

ودسّ سيفه في غمده ، مستطرذا :

— المهم من ينتصر في النهاية .

أتاه صوت (مهاب) ، وهو يقول :

— صدقت يا فتي .

التفت إليه (فارس) في هدوء ، وقال في أسف :

على الباغي تدور الدوائر يا صديقي !. إنني أكره القتل

وإراقة الدماء ، ولكن ..

أكمل (مهاب) :

— للضرورة أحكام .

أوماً (فارس) برأسه موافقًا ، وقال في أسى :

— نعم .. هذا صحيح .

وانحنى يلتقط السيف الذهبي ، ثم اعتدل يسأل

(مهاب) :

— ولكن أين (فهد) ؟

أجابه (مهاب) :

— لقد رحل .

هتف (فارس) في دهشة :

— رحل !؟

أوماً (مهاب) برأسه إيجاباً ، وقال :

— نعم يا (فارس) .. لقد راقب معي نهاية صراعك مع ذلك القشتالي ، وراك تتصر عليه ، فأدرك أن مهمته قد انتهت ، ورحل .

قال (فارس) في ضيق :

— ألا يبقى ليتحدث إلي قليلاً ؟

غمغم (مهاب) :

— إنه لا يميل إلى الحديث .

أتى من خلفهما صوت يقول :

— وهذا أروع ما فيه .

التفت الاثنان إلى الأمير (عيدة) ، الذي يمتطي جواد

(هاكل) ، وذراعه اليسرى تنزف من جرح سطحي ، وهتف

(فارس) :

— مولاي .. أنت بخير ؟

ابتسم الأمير ، وهو يقول :

— نعم يا فتى .. لقد أقسمت أن أقتل ذلك القشتالي

الحقير ، ولقد بررت بقسمي .



وشهق القشتالي في ألم ، واضطبغت عيناه بلون الدم ، ثم انتفض ، عندما انتزع (فارس) سيفه من قلبه ، وهوى على وجهه عند قدمي (فارس) ..

ثم أشار إلى السيف الذهبى ، الذى يحمله (فارس) ،
وأضاف :

— وأرى أنك قد حصلت على السيف اللعين كذلك .

أوماً (فارس) برأسه إيجاباً ، فقال الأمير :

— حطمه يا فتى ، ووزع ثمنه على فقراء العرب ، فهذا

الشيء اللعين كاد يفسد قضيتنا كلها .

أجابه (فارس) :

— سأسلمه إلى الأمير (محمد بن الأحمر) .. وليتخذ هو

ما يراه بشأنه .

قال (عبيدة) فى ارتياح :

— هذا أفضل قرار يا ولدى ، ولكننى أريدك منك أن تبلغ

الأمير (محمد) رسالة خاصة منى ، عندما تلتقى به .

وابتسم مستطردًا :

— أخبره أن أمة العرب بخير ، ولن ينجح أى مخلوق فى

تقطيع أواصرها .. قد نخسر (الأندلس) ، ولكننا لن نخسر

قيمنا وعظمتنا أبدًا ، حتى ولو واجهنا أقوى سيف فى الدنيا ،

وحتى لو كان هذا السيف هو السيف الذهبى نفسه .

وعندما انطلق الثلاثة ، عائدين إلى قصر الأمير (عبيدة) ،

كانت الشمس ترسل أول خيوطها الذهبية فى السماء ..

سما (الأندلس) .

[تمت بحمد الله]

٤٦٨٤

رقم الإيداع :

٩٧٧ / ٢٦٦ / ٠٠٣ / ٢



٦

فارس الأندلس

من البطولات العربية
في أخرج فترة للعرب في أسبانيا

السيف الذهبي

- مع محاولاتهم المستمرة ، لتشتيت صفوف العرب في (الأندلس) ، أرسل ملك القشتاليين مندوبًا شيطانيًا ، إلى أحد أمراء العرب ، محاولًا إغوائه بسيف ذهبي خالص ، وكان على (فارس) تحطيم هذا الإغراء ، قبل أن تشتعل الفتنة ..
فهل ينجح (فارس الأندلس) ؟ أم ينجح ذلك السيف .. (السيف الذهبي) ؟

الفارس الأسود

الرواية القادمة :
المؤلف



د. نيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
ب. القاهرة - ١١٥٥٥٥

التمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي